شمران الياسري (ابو كاطع)

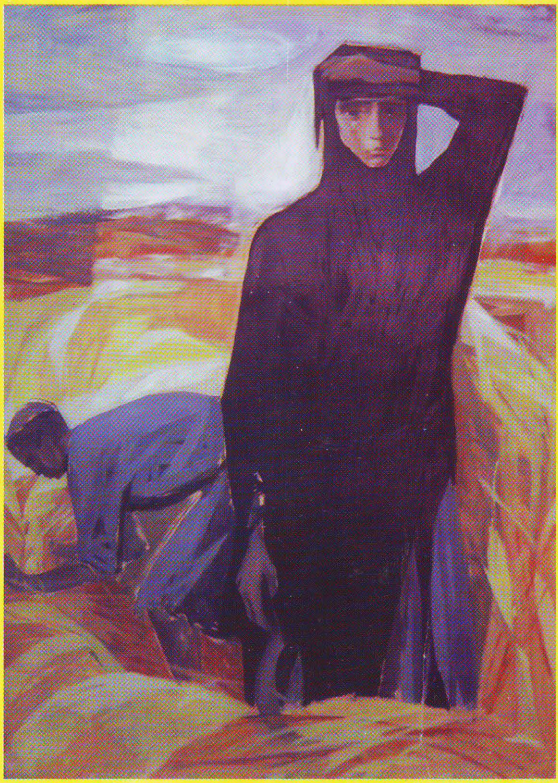

# رواية بلابوش دنيا

الكتاب : بلا بوش دنيا

المؤلف : شمران الياسري

الناشر : شركة الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

الطبعة الاولى منشورات الثقافة الجديدة ١٩٧٢

الطبعة الثانية الرواد ٢٠٠٧

العراق / بغداد / الرواد

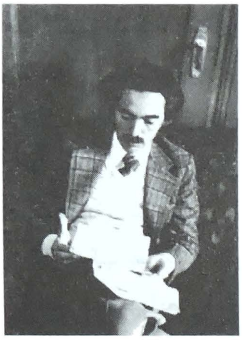

# نبذة عن حياة المؤلف :

* في بيئة ريفية بمحافظة واسط – قضاء الحي – ولد شمران يوسف الياسري في نهاية عشرينيات القرن الماضي

* عائلته تمتهن الزراعة ، لكنها لم تكن تملك الارض ، الا أن نحداره من اسرة علوية (من السادة) أعطى عائلته مركزاً مرموقاً ووجاهة اجتماعية في المحيط الذي يعيش فيه ومنحهُ تعاملاً خاصا من ملاك الارض والفلاحين على حد سواء.

* لم يدخل شمران الياسري المدارس الحكومية وانما درس في الكتاتيب (الملاّ ) وحفظ القرآن على يد والدته ، لكن رصيده التعليمي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل دفعه ولعه ورغبته في التعلم أن يعتمد على نفسه ويواصل القراءة الخارجية.

* اتصل بالمثقفين من أهل المدن القريبة ، وفي مقاييس ذلك الزمان فأن المعلمين هم رموز الثقافه والعلم.

* كانت لهُ زيارات الى بغداد ، حيث أحتك بأهل الفكر والسياسه ، الأمر الذي حفزه أكثر لزيادة رصيده المعرفي . وبالفعل فقد اصبحت معلوماته في القراءة والكتابة لاتقل عن خريجي المدارس الثانويه ، بل تفوقهم ، عندها أشار عليه بعض اصدقائه المقربين أن يقدم امتحانا خارجيا ، وكان أن اجتازه بنجاح.

ـــــ بدأ يتعلم اللغه الانكليزية ويأخذ دروساً خصوصية فيها ، أضافة الى تعلم مبادئ المحاسبة ومسك الدفاتر ( البلانجو ) الذي أهله في فترة لاحقه للعمل لدى بعض المحال التجارية بصفة محاسب.

ـــــــ كان لديه مشروع للدراسة في الجامعة ، لكن انغماسه في العمل السياسي و الصحفي و الظروف التي تضطره بعض الاحيان للأختفاء ، منعته من تحقيق هذا المشروع.

ـــ أصبح شمران الياسري الشاب القادم من الريف ، مثقفاً من الطراز الاول ،

يلتهم الكتب بشغف ، ويقبل على قراءة كل مطبوع يتوفر له سواء في مجالات الادب والثقافة ، اضافة للسياسة.

* انتقل شمران الياسري الى العاصمة بغداد ، وبدأ يكتب في عدة صحف.

* انتسب الى نقابة الصحفيين واتحاد الادباء ، واصبح لديه عمود يومي يكتبه في جريدة طريق الشعب.

* كان الغالب على نتاجاته ، الهموم الفلاحية ومشكلات الريف ، اما برنامجه الاذاعي ( احجيها بصراحه يبو گاطع ) فقد كان خطاً أوفتحاً جديداً في مجال البرامج الشعبية ، بل يمكن وصفه بأنه عمل ريادي في مجال البرامج الجماهيريه فهو برنامج ناقد وساخر يترقبه الجميع سواء كانوا من ابناء الريف او المدينة.

*عمل شمران الياسري في عدة صحف ومجلات منها : صوت الاحرار ، البلاد ، الحضارة ، الثقافة الجديدة ، الفكر الجديد.

* درس الصحافة في سنوات السبعينيات من خلال دورات صحفية في معهد الصحافة بألمانيا الديمقراطية.

* تعرض شمران الياسري للملاحقة والاعتقال عدة مرات وتنقل بين سجن بغداد المركزي ، وبعقوبة ، والعمارة نتيجة توقيعه على مذكرة نداء السلم في كردستان.

* غادر العراق عام ١٩٧٦ متخفياً وسافر الى أوربا ليعمل مندوباً لوكالة الانباء الفلسطينيه في (براغ ) وتوفى هناك في حادث سير.

* توفى الروائي شمران الياسري في يوم ١٩٨١/٨/١٧ بعيداً عن وطنه وأسرته وقد اوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة الشهداء الفلسطينين ببيروت كي يقترب من العراق ، ولكي يجنب أسرته وأصدقاءه مما قد يتعرضون اليه من قبل آنذاك ، باعتباره كان مطلوباً لها ، وهدفاً ينوون تصفيته..

* ومع ابغماس (ابو گاطع ) في العمل الصحفي ، الأأنه كان يردد بأستمرار .. الرواية .. الرواية .. أنني اعشق العمل الروائي .. وبالفعل ، فقد كانت باكورة عمله الروائي هذه الرباعية .. التي تضعها مطبعة الرواد بين ايدي القراء باجزاءها الاربعة.

شركة دار الرواد المزدهرة
للطباعة والنشر المحدودة

# بلا بوش دنيا

شمـــران اليـــاســـري

رواية

# بلا بوشْ دنيا

الجزء الثاني من الرباعية

الطبعة الاولى ١٩٧٢
الطبعة الثانية ٢٠٠٧

# تقديم

شمران الياسري.. مخاضة الفكر من الريف.

إذا كانت هذه الرواية قد بدأت من مضيف الشيخ (سعدون بن مهلهل) في ليلة من ليالي كانون الباردة، وبدأت في الزمان الذي أصبحت فيه ثورة العشرين عام١٩٢٠ ذكرى قريبة، يتغنى العراقيون ببطولات ثوارها ، ويتحسرون على خسارتهم للمعركة أمام القوة الكبيرة للأنكليز، فأنها تنتهي قبل ان تسقط ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة ويتم اجهاضها عام ١٩٦٣ صريعة المؤامرة والفاشية، وفوضى الإدارة التي طبعت المراحل الأخيرة من عهدها..

ولقد إختار الكاتب ان تنتهي الأحداث (المنشورة) من الرواية قبل يوم الثامن من شباط الاسود عام ١٩٦٣، لان الرواية نشرت في العراق، وفي ظل النظام المسؤول عن ذلك الحدث الاسود.. ولكنه (المؤلف) أكمل في روايته الثانية (قضية حمزه الخلف)، التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد رحيله بعامين، احداث الانقلاب وما تلاها.. الامر الذي يجعل الرواية الاخيرة جزءا اساسيا من الرباعية وخاتمتها التي جسدت بداعة المؤلف عندما يتحرر من قيود الرقابة ويقول الاشياء بمعانيها ومدلولاتها.

فقد كتب الرواية وهو في المنفى ونشرت بعد وفاته في بيروت، ووصلتنا بعد ان عاد المنفيون عام,٢٠٠٣

لقد أرخ هذا العمل المجيد لمرحلة حرجة من مراحل الدولة العراقية الحديثة

لاكثر من أربعة عقود، تتطور فيها سلطة الاقطاع بدعم ومباركة الانكليز والسلطة التابعة لهم، وتلقي بظلالها على ريف الوسط والجنوب -محور الرواية ومناخها-..

فالكاتب يؤرخ لمرحلة نشوء الاقطاع، وعلاقة ذلك بالانتكاسة التي تعرضت لها عشائر الفرات الاوسط (هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشاير بدجله).. فلقد عاد (ابن طرفه) يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الانكليزي.. وما ان سمع الشيخ (سعدون بن مهلهل) بهذا الخبر، حتى بدت قضية الوصول الى الحاكم الانكليزي هاجسه الأعظم، والبداية لنشوء السلطة التي خلقتها الألف روبية وتحالفاته مع أعداء الأمس.. ثم تعرض الرواية لوقائع سقوط الاقطاع على يد ثورة تموز المجيدة ونشوء علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة .. تتجلى خلالها أخلاقيات وقيم المجتمع، وثبات بعضها وإنزواء الأخرى بسبب هذا الوضع الجديد .

لقد قدمت هذه الرواية المرحوم (شمران الياسري- ابوگاطع) اديبا عظيما عرفه العراقيون عبر قلمه الرائع وبرنامجه الاذاعي الهائل الذي شغل الناس وحاز على اعجابهم ومتابعتهم.. وعندما بدأت جهود نشر الرواية، وهي جهود استمرت لأشهر لإقناع وزارة الثقافة ولأعلام (سابقاً) لتعضيد نشر الرواية، ثم اعتذارها لأسباب معروفة، تحول الهدف الى أن يتولى القراء تمويل النشر من خلال شراء الرواية مقدما.. وهي تجربة فريدة في زمن كانت الدولة تطبع أوطأ الكتب قيمة ولعشرات الجهلة من الكتاب وأدعياء الثقافة.. فمثل هذا بحق تحديا فطريا من الجمهور المثقف لأعداء الثقافة والفكر الراقي.

لقد كتب المرحوم ابو گاطع هذه الرواية على ضوء الفانوس في الفترة التي تخفى فيها عن السلطة غداة انقلاب شباط ١٩٦٣,

كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب ويصحح ويعيد الكتابة.. وكان يقرأ مسوداتها لأصدقائه الذين يأتون لزيارته تحت جنح الليل، متخفين من عيون الشرطة وجواسيس السلطة.. فيتحاورون ويناقشون. وكان بعضهم شخوصا بالرواية وابطالا لاحداث بعينها..

ان (الزناد) هو الاداة التي استطاع بها (إبن مهلهل) التغلب على الشخصية الاسطورية (خلف) وأستحوذ على (ديمته) مقابل هذا الزناد..

ولكن ذات (الزناد)، يستطيع ان يتسبب بحريق هائل وُيغّير مجرى الاحداث، ويوقف ما لم يستطع (خلف) التغلب عليه، وهو البطل الهائل، والطيب حد السذاجة..

لقد عاش (ابو كَاطع) في الريف، تعلّم منه ما لم يتعلمه في المدينة وفي المدارس والعمل السياسي..

إن ما تعلّمه في الريف هو الذي كوّن شخصيته اللمّاحة التي إلتقطت واختزنت ألوف المشاهد والجزئيات التي يعجز المشاهد من خارج تلك البيئة ان يلتقطها. ولسوف ُيعطي التأريخ لهذا الرجل البارع شهادة على انه تفّرد حد الإبداع في عرض صورة للريف واخلاقيات أهله، ونمط تفاعلهم مع الحياة وتداعياتها بطريقة لم تتح لموهبة أخرى، وأجزم انها لن تتح في الزمن المنظور.

فالذي يعيش في أجواء هذه الملحمة الفاتنة التي تحكي قصة الشعب العراقي الساكن في الريف، لن يتمكن من مغادرة هذا الجو بسهولة..

وعندي أدلة على اصدقاء قرؤوا الرواية فحفظوا مقاطع طويلة منها، ومشاهدات وحوارات في قراءة أولى لها.. وعندما حاولت الاستيضاح عن هذه المقدرة في الحفظ، قالوا بثقة (ان هذه الحوارات محظ حياتنا ونمط سلوكنا، ومن العجيب انها وضعت على الورق بهذه الامانة!!)..

ولم يترك المؤلف (شمران الياسري) بعض التفاصيل التي لا يمكن تصور وجودها في جو درامي مشتعل بالاحداث الكبيرة.. فقد غاص في تفاصيل الحياة العادية وفي الغزل والجنس المتمرد على حدود الذهن الريفي.. ووصف الكرم. يقابله البخل المفزع.. ولقد وصف ذكاء أهل الريف وسرعة بديهيتهم للحدود التي تقنع ابن المدينة الذي لم يعش في بيئتهم.

لقد نشرت هذه الرواية، عام ١٩٧٢ ضمن منشورات مجلة "الثقافة الجديدة"، المجلة التي قادت الفكر العلمي والثقافة التقدمية، ومازالت تفعل ذلك بشرف وامانة.. وطبعتها مطبعة الشعب..

وخلال عام ٢٠٠٣، بعد سقوط نظام الحكم، كان المثقفون، وعامة الناس. يبحثون في شارع المتنبي عن الرباعية او عن بعض أجزائها.. وكان اصحاب المكتبات يعرفونها تماما، ويرشدون الى النسخ المصورة منها والاماكن التي توجد فيها..

وخلال عام ٢٠٠٦ إتجهت مطبعة (الرواد) الى فكرة إعادة طبع الرواية، وهو حلم راود الكثير من محبي أدب (ابو كَاطع)، وبعد أن بادرت وزارة الثقافة مشكورة الى اعادة طبع رواية (قضية حمزه الخلف) التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد عقدين من الزمن..

ان مطبعة (الرواد) تقدم خدمة مجيدة للمكتبة العراقية عندما تعيد طبع

هذه الرواية، معرضة عن تفاصيل الكلفة واحتمالات الخسارة والربح، معتمدة بالدرجة الأساس على حقيقة ان هذا العمل الكبير يجب ان يكون في متناول القارئ، للتذكير بان الشعب العراقي. الذي خاض في الريف معركة التحرر من التخلف جنبا" الى جنب مع المدينة. بعمالها ومثقفيها وطلابها. يستحق توثيق نضاله المجيد.. وللتأكيد على إن المكتبة العراقية لم تُغلق. وإن القارىء العراقي موجود. وعليك أن تسعى إليه وتقف ببابه. تقدم اليه المادة الجيدة في هذا الزمن العصيب.

ان رواية (شمران الياسري) (الرباعية) بأجزائها الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ وفلوس أحمّيد) تستحق القراءة، وتستحق التفكير الجدي بانتاجها كعمل سينمائي أو تلفزيوني أو اذاعي، لأنها ملحمة وطنية تقطعت انفاسنا ونحن نتابع بأهتمام شديد شخوصها وأبطالها وهم يتحركون على مساحة زمنية وجغرافيه وأخلاقية واسعة..

وتستحق (مطبعة الرواد) كل التقدير لهذه المبادرة المخلصة.. كما تستحق إذاعة (راديو الناس) التقدير والعرفان بعد ان قررت إعادة عرض هذه الرواية بطريقة مبتكرة فيما يسمى (الكتاب المسموع).. واستطاع الفنان المبدع الاستاذ (جاسم يوسف) ان يضع المستمعين في أجواء قريبة من مقاصد المؤلف للشخصيات والاحداث والبيئة.. لانه إبن البيئة وأحد الشهود على جانب مهم من أحداث الرواية..

لقد حظي المؤلف بقدر معقول من الاهتمام غداة سقوط النظام عام ٢٠٠٣.. فاحتفت به الصحافة بطرق مختلفة.. وأعادت وزارة الثقافة نشر روايته (قضية حمزة الخلف).. كما منحته درع المتنبي.

سيبقى (شمران الياسري ـ ابو كاطع)، متفردا" في حصاد القيمة الكبرى للكتابة من الريف عبر أفق فني وأدبي لم يتح لمثله.. وسيبقى الريف العراقي قضية كبرى ومصنعاً هائلاً لإنتاج الثقافة ومنبت الفكر الخّلاق في الشعر والأدب والخطابة والسياسة.. ولقد كانت (صراحة) أبو كاطع مدرسة كبرى في انتاج العمود الصحفي اليومي، ثم في انتاج الرواية الرائعة.

**إحسان شمران الياسري**
**شباط/ ٢٠٠٧**

# الفصل الأول

تطاول فرهود بن خلف على اطراف قدميه، ثم شكل كفيه كأسطوانتين ووضعهما في مواجهة عينيه، كمن يراقب بالناظور، وقال معابثا:

– دگيت الدربيل على درب الكوت. ما شفت خيّال، ولا حتى زله..

افتقد خلف الطمأنينة، فقرر اعتلاء (السوباط) بنفسه. فكر وهو ينظر وراء هورة البترا ومقاطعة صلال: اطعمها بلا كيل ولم يروضها بالركوب حتى صارت تملأ الافق بصهيلها وتستدير على مربطها– وقد اختلط شعر (شليلها) بشعر (معارفها) كلما لمحت خيّالا على الطريق او سمعت وقع حوافر من بعيد.. ولربما اغرته فأطلق لها العنان. وليس دون معنى قولهم (منایاهن تحت حوافرهن).

رفع صوته من فوق مرتقاه ونادى حسينا يسأله:

– أبو ناصر ما اتگلي شنهي تعطيلة حمزة؟ شو هاي مدري شنهي ما شنهي.. گال فرد يوم اظل بالكوت..

فأصيب حسين بعدوى القلق وحاور نفسه: وهذا مدعاة لوساوسي، فقد تعّود ان يحل ضيفا على ناصر كلما سافر الى الكوت، ويعود بما يطمئنني.. اخبار وهدايا .. ولقد تشعبت اخباره وهداياه في الاشهر الاخيرة.. افهم لماذا تنوعت هداياه: اتقن صنعته فارتفع اجره الى درهم ونصف الدرهم في اليوم الواحد . وهذا مبلغ كبير اذا كانت وزنة الحنطة بثلاثة دراهم.. . لكن تشعّب اخباره لغز ومبعث قلق. لدرجة تراجع خوفي عليه من دسائس بيت مهلهل الى المرتبة الثانية وحل محله خوف غامض من عدو لا اكاد اشخصه بسهولة.. اشم من كلماته ومن اخباره رائحة مناكدة لا تشبه تلك التي سببت رحيله من البترا . ولولا هذا القلب الملعون الذي لا

يطاوعني دائما لقلت له مزيدا من المناكدة، مزيدا من المتاعب لكل الظالمين والمتغطرسين . ترى هل وقع في مشكل مع الانكليز المشرفين على بناء السد او مع الشرطة فتحتم على حمزة ان ينتظر النتائج ليأتيني بالخبر اليقين؟ بدأت افكر مثل العجائز!! نسيت من اكون.. وتنكرت لكل الشعر الذي قلته ورويته ونسيت..

تصايح اطفال القرية وهرعوا يتطلعون بشغف الى سيارة تجتاز المرتفع الجنوبي لهورة البترا..

وضع خلف كفه فوق حاجبيه واعلن دونما تمييز للونها.

- هاي سيارة ابن مهلهل وچاد..

ثم نادى ولده:

- ولك فرهود.. اركض بالعجل اكنس الربعة وافرش السجادة الجديدة. ترا ابن مهلهل امسيّر علينا.

صاح حسين من ربعته:

- ابو حمزه شنهي هالزحمه!.

لم يستجب فرهود لامر والده. انصرف مع الاولاد والاطفال لاستقبال السيارة. فأضطر خلف للنزول من (السوباط) ليأخذ على عاتقه مهمة كنس الربعة وفرشها.. سمع (هورن) السيارة قرب بيته، فخرج لاستقبال الشيخ والترحيب به. لكن السيارة اجتازت البيت بسرعة، فجلله غبار كثيف، غمر القرية كلها، وحال بينه وبين الرؤية..

فناداه حسين بنبرة تهكمية:

- ابو حمزه شنهي هالزحمه!

تساءل خلف بانكسار:

- شتگول ابو ناصر؟

اجابه حسين ساخرا:

- الشيخ گال: اخاف اتصير زحمه على الجماعه ولهالسبب ما حوّل بربعتك.. ولا سلم علينا بأصابعه حتى لا يكلفنا برد السلام!!

قال خلف بفتور:

- اخاف هاي سياره غريبه؟

فأجابه حسين مناكدا:

- لا، ولا لك لوا..

ثم انشد بصوت عال:

- سلّم على الويّاي چنّي غريبه .

يا دمعة البالعين صيري اديبه

صاح الاطفال، وهم يقتفون اثر السيارة:

- وگفت.. وگفت يم بنية سيد سراب..

فتبعهم خلف على مهل . رأى سعدون بن مهلهل وولده فالحا يشيران صوب ديمته ومن حين لآخر يشاركهما عبيد المنتاز اشارة بيده او حركة من رأسه..

كانوا يناقشون مشروع تمديد جدول البترا: يريد الشيخ سعدون نهاية الجدول في الطرف الغربي من هورة السرابه ( ديمة خلف ) ويصر فالح على تمديده مسافة ابعد، معززا وجهة نظره بقول مسّاح التسوية: ان هذه المنطقة تروى بسهولة من مياه جدول البترا اذا اكملت سدة الكوت.. ويشير

فالح بأصبعه الى مكان القرية المقترح بدلا من الموضع الذي يقترحه ابوه.. ويوازن عبيد في تأييده للرأيين يريدها بالتساوي، مرة للاب واخرى للابن، فكلاهما راغب في تنصيبه سركالا على الاراضي البكر عند احيائها . ولا فرق بين ان تكون القرية هنا او هناك، بل ان الامر الجوهري عنده تمديد الجدول مسافة أبعد ليستغل اكبر عدد ممكن من الفلاحين..

ادرك خلف طرفا من حوارهم، فابتهج لتحقيق ما كان حلما يراوده.. واقحم نفسه على المتحدثين شارحا وجهة نظره: ان يتفرع الجدول الى فرعين، قبل اختراق ديمته، ليطوقها باحكام.. نظر اليه فالح بن سعدون شزرا، ثم امره بالكف عن التدخل فيما لا يعنيه..

توّثب خلف للرد، فأمسك سعدون ذراعه وسحبه برفق، حتى اذا ابتعد خطوات.. اسر اليه بلهجة ناعمة: لا تتعب نفسك في امر يتولاه غيرك.. واضاف كالمتذمر من حدة مزاج فالح: الشباب غريبو الاطوار.. واحسب اننا وهم على طرفي نقيض.. . ولكن على العموم، ما داموا يملكون طاقة وحيوية نفتقر اليها، وما دامت مشاريعهم مثمرة، فلنفسح لهم المجال ونريح انفسنا، بعض الشيء.. ونصيحتي لك، بعدم التدخل في هذه المسألة لان فالحا يتولاها بنفسه..

ويوم ينجز المشروع وتتدفق المياه، فما عليك إلا ان تختار من الارض ما يكفيك.. وفي اي مكان شئت . ثم صمت سعدون برهة، وتساءل كأنه تذكر مسألة هامة:

- كلي زنادك لگيت له بانزيم؟

ندت آهة عن خلف وقال:

– اويلاخ سعدون يا خوي.. وروح مهلهل چنّك بگلبي . صارلي مدّه ادور له على بانزيم.. عذبني بالنفط.. ما يدوي بالنفط.. بلابوش نفط..!

اشار عليه سعدون ان يحضر قنينة ليملأها بالبنزين من خزان السيارة، فهرول خلف الى بيته...

انتهى فالح بن سعدون الى قرار حاسم حول مسافة الجدول ومكان القرية، فلم يعد ثمة ما يدعوه للبقاء– وكان ابوه متعجلا الانصراف هو الآخر...

ولما استقبلهم خلف ملوحا بقنينته الفارغة امر فالح سائق السيارة ان لا يتمهل، واخرج رأسه حتى العنق من نافذة السيارة وصوت على خلف بسخرية:

– نفط.. نفط.. حط له نفط . احسن لك وروح والدك!

غشي الغبار خلفا، لبعض الوقت، حرك كفه قريبا من وجهه، ثم عاد الى بيته يجرجر قدميه من فرط خيبته.. فاستقبله حسين مهوسا:

– رد تارس صمّه بخصيانه.. رد تارس صمّه بخصيانه!!

* * *

تساءل حمزة وهو يترجل عن فرسه:

– شنهي هالسياره اللي چانت يمكم؟

سارع حسين، على غير عادته، فأجاب:

– الشيوخ يريدون يطلعون نهر يعمرون بيه هورة السرابه..

ضحك حمزة وقال:

– على كولة ناصر ما دام شيوخكم بدلوا اسامي الگيعان يجي يوم يبدلون بيه اساميكم..

قهقه حسين عاليا، حتى تراقصت خصلات لحيته، ورمق خلفا بنظرة ذات مغزى، فألفاه منشغلا بلف سيكارة، متعمدا تجاهل النكتة التي رواها ولده..

تلفّت حمزة الى كل الاتجاهات، ثم خفض صوته ليروي نكتة اخرى سمعها من ناصر: يتندّر عمال سدة الكوت بحكاية عن ((شيخنا)) سعدون بن مهلهل عضو مجلس الامة الموقر!، بأنه يباشر النوم في قاعة المجلس لحظة جلوسه على الكرسي، ويغط في نوم عميق خلال المناقشات.. فأذا اقتضى الامر توقيع بعض الوثائق عمد جاره الى خلع الخاتم من اصبعه وبصمه على الوثيقة.. واذا ما ارفضت الجلسة بقي في مكانه يملأ القاعة شخيرا حتى يوقظه الكناسون!

* * *

اصغى حسين بأنتباه لما يرويه حمزة.. استبدّ به واحد من الاخبار مفاده: ان ناصر سينتقل الى كركوك بعد انجاز سدة الكوت، لان المهندس اعجب بمهارته ويريده ان يعمل هناك..

فتساءل حسين وخلف معا:

– هاي وين صايره كركوك؟

– فوگك من بغداد..

حرك حسين رأسه وقال:

– سامع بسمها من المثل اليگول: مجدّي كركوك يجدّي وخنجره بحزامه!

وقال خلف:

– واسمها معلوم بالسبلان الزينه.. عليه الوصف، سبيل كركوه..

وقال حمزة:

– منّاه وغادي لا تنعرف بمجاديتها ولا بسبلانها، تنعرف بنفطها..

واجاب على تساؤلاتهم حول النفط، فنسج رواية، لم ينسبها لناصر: ان النفط يستخرج من الآبار بمضخات تشبه مضخات الشيوخ ويجري النفط انهارا كما يجري الماء في المحمولة.. وقد يتولى ناصر مساعدة المهندس على تشغيل المضخة..

تذكر حمزة، بعد كلام طويل، قصاصة ورق في جيبه، هي رسالة الى حسين من حفيده فاضل بن ناصر. لم يصدق حسين ان حفيده بلغ مرحلة كتابة الرسائل وهو في هذا السن . تملّى سطورها ثم ناولها لولده ملا نعمه . شرع يتلوها بتلكوء لرداءة الخط الذي يناسب تلميذا في عامه الدراسي الثاني.

كانت مجرد تحيات لجده وعمه واخوانه و (سلام خصوصي الى جدي خلف...). ضحك خلف.. ثم رفع كفه حتى لامست (عگاله) وقال:

– وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته..

فكر سويلم الصگر: كيف يتسنّى لرجل هنا في البترا ان يتلو سوادا على بياض سطرته انامل طفل مثل فاضل؟ اوشك ان يطرح السؤال على الملا، ثم ما لبث ان اهمله مخافة تسليط الاضواء على ابن اخته، فتصيبه

عيون الحاسدين .

تحدث حمزة باسهاب عن (سدة) الكوت وضخامتها وعن (سدة) الغراف الاصغر حجما.. والاستعدادات لافتتاح السدين على يد الملك غازي الاول.. انصرف خلف لتصور المفتاح الذي (يفتح) به الملك هذين السدين.. تخيله ضخما، معقدا، غالي الثمن.. فأرتفع صوته بالتساؤل:

- ايباه! هذا اشلون مفتاح؟!

اجابه سويلم الصگر:

- انته گول . مفتاح وبيد الملك!

ثم استحوذ حمزة على انتباه الحاضرين بوصفه الدقيق لجهاز الراديو، الذي رآه ولمسه بأصابعه..

فقال سويلم الصگر، اعجابا بفطنة حمزه:

- اللّه يبلى يومك يا حمزة.. سفرتك يومين ونص.. هاكثر شايف مساعل.. هاكثر سامع سوالف..

قال خلف عن الراديو:

- هذا مثل مال بيت مهلهل.. ابو البوري.

فأجابه ولده:

- يا بويه انته تحچي تسعة بالشهر.. يا بوري يا نوري.. هذا التگول عليه صندوگ غنا ايسمونه فنغراف ايحّطون بيه غوانه وايغني.. هذاك لا غوانه ولا زبانه..

ثم شرع يوضح لهم: لم اصدق مبدأ الامر ما سمعته عن الراديو.. ولكن ناصرا اخذني الى الجهاز ونادى صديقه صاحب المقهى.. وجعلني احرك

ازرار الراديو.. واصغي الى تنفس المذيع من لندن..

فهوس حسين مقاطعا:

- ايگح بلنده وصوته اهنا!

وجاهر حسين بتصديقه لرواية حمزة: ليس ثمة مستحيل بعد الآن.. وقد امتلك الانسان سر (عجن) الحديد وقولبته كما يريد.. وحديث نبوي يقول.. اذا تكلم الحديد وقرب البعيد..

قاطعه خلف على الفور مؤيدا: لقد قرب البعيد بصورة لا يحتملها العقل.. تصّور لقد كانت السيارة في اقصى طرف من البترا.. ودخلت مسرعا لاكنس الربعة.. وقبل اتمام الفراش اجتازت القرية..

قال حسين وكأنه يكمل لخلف:

- وچثحت التراب بوجوهنا!

ونسي حسين ان يقول بقية النبوءة.. ما الذي سيحدث اذا تكلم الحديد وقرب البعيد، فقد استهواه حديث حمزة عن الجرملي (هترل) الذي يعتزم محاربة الانگليز.. وقال بشماته:

- اويلاخ يا الانگريز.. هلبت يحصل الكم يوم اسود.. مامش حامض بول مثل هذا الهتر.. ثم هوّس (ويصفالي الجو واهلس ريشه!؟).

لكن حمزة عاجله بما خفف حماسه، حين اخبره بعداء ناصر لهتلر..

* * *

ازدحم مضيف الشيوخ الكبير بالمعزين، كذلك بيت الشعر الذي نصب بينه وبين القصر، وثمة افندية وشيوخ يؤمون القصر فتزدحم صالته

وحجراته من آن لآخر.. وقريبا من (رفّة) المضيف تحلّق جمع اللطامات، فأصغى الرجال بأنتباه الى مطلع تردده الشاعرة:

- حفر بير الفهم بأبره وطلع ميتين نبّاره

طرف صيته وصل بغداد واهل الحي والعمارة

وتناهى صراخ رجل يندب:

- يا سعدون يا خويه..

فأشرأبت الاعناق نحوه . كان بادي الاعياء، تتقدمه عكازّته .

ولما اقترب من المضيف الكبير اجهش بالبكاء واعول:

- يسعدون خويه الدنيا بعدك ما تسوا فلس.. هيچ اتموت بساع بساع..

اشاع صراخه، ومشيته المتعثرة، جوا عاطفيا.. فانصرف المعزون عما تقوله الشاعرة . واجيب المتسائلون: هذا خلف، احد افراد عشيرة المرحوم سعدون بن مهلهل.. وكان يرتبط معه بعلاقات ود خاصة.. ترجع لايام الطفولة .

بكى خلف على نحو موصول، وسط الديوان، فتخفف الحاضرون من ضعف العاطفة رويدا رويدا.. واظهر بعضهم الانكار لمواصلة البكاء وفي اذهانهم سؤال: لو ضج الديوان بالبكاء مشاركة لخلف فما الذي تفعله النساء؟

همس احدهم بأذن خلف، ينصحه بالكف عن البكاء.. فأستثيرت عواطفه.. وانطلقت شجونه، دون مراعاة لأي اعتبار، ورفع صوته صارخا:

- يسعدون اشلون انساك؟

ثم ادخل كفه الى جيبه واخرج الزناد.. وراح يلوح به، ويصرخ بصوت

اعلى:

- هذا زنادك يسعدون!

غالب الضحك بعضهم.. واشفق آخرون على العجوز..

دخل فالح بن سعدون، بعد توديعه لمجموعة من الافندية، فسمع صيحة خلف (هذا ازنادك يسعدون)، امتلأ غيظا، واشار الى عبيد وداود بأخراج خلف من المضيف..

بذل حمزة فوق ما يحتمل انسان مثله، ليحول بين نفسه وبين ارتكاب حماقة يطفئ بها غليله من مسلك ابيه.. ولما ابتعدا عن المضيف، لطم حمزة على وجهه ورأسه وقال حانقا:

- ليش هيچ ليش؟ سويتنا ضحچه لليسوا والمايسوا.. تصرخ مثل الزعطوط: ازنادك يسعدون.. انعل ابو الزناد لا ابو الباعه لا ابو الاشتراه.. لا ابو ذاك اليوم الاسود السواني ابنك..!!

التزم خلف جانب الصمت، فيما راح حمزه يكيل الشتائم لسعدون ومهلهل وجدهم السابع عشر على طول الدرب.. وعقّب حسين، الذي تمارض عن حضور الفاتحة، حين بلغه امر خلف، وصراخه وتلويحه بالزناد:

- يا حيف واللّه يا حيف.. إخّرف الزله!

ومرة قال بمحضر من حمزه، بدالة لا ينكرها عليه احد، وكأنما يخاطب خلفا:

- يا سفيه.. يا كلب ما مش.. اشتذكر منّه وتبچي عليه؟ أطاّك زناد واخذ ديمتك!.

*  *  *

تسابق فالح بن سعدون مع الزمن، بخطوات عملية ناجحة: اتفق مع الحاج محمد تاجر الشيوخ على تسليف الفلاحين بطريقة (الاخضر) ثم ابتاع المتبقي من محاصيلهم.. واشترك معه في طاحونة نصبت جوار المضخات.. وزرعا مساحة كبيرة بمحصول القطن.. ثم نفذ رغبة، حال والده دون تنفيذها ايام حياته، وذلك بطلبه انشاء مدرسة لاطفال القرية، لتستقبل ولده حين يصبح في سن مناسبة للدراسة . كان اعتراض المرحوم والده على فتح مدرسة للقرية يتلخّص في انها تحشو اذهان الصبية بكل ما هو غريب وسخيف، كقول ابنه فيصل: ان الارض هي التي تدور حول الشمس . المطر يتكون سحابه من البخار.. وان فيصلاً تجرأ ذات يوم وشتم الانگليز ممتدحا (الجرمل) وهتلر .

وبقدر ما كان الشيخ فالح يتعجل جمع الثروة والصعود في سلّم الشهرة، كان يستزيد من اغتراف الملذات، فعمّر القصر دائما بالكاوليات.. وامسى الخمر فيه كالقهوة في المضيف.. وتعّود اهل القرية سماع الفضائح باستمرار. ففي كل يوم فضيحة، ليس بينها رقص الكاوليات.. او مبيت مومس من المدينة لليلة او ليلتين .

انما الذي يستحق الهمس هو ما يتعلق ببعض بنات القرية .

ولم تتردد زوجته عن اعلان موافقتها على مسلكه قائلة: فليفعل كل شيء.. . وليجمع كل (گحاب) الدنيا.. المهم ان لا يتزوج امرأة تشاركني بيتي وتنجب اطفالا يزاحمون اولادي على (الشيخه) والثروة . واخيرا غضّت الطرف عن دخول زوجة ملا علي الى حوش الشيوخ، وحتى الى

حجرة زوجها.

*  *  *

في أمسية من أماسي ايار ١٩٤١، لوحظ على الشيخ فالح بن سعدون ضيقه من سكون الهواء ووخمته، فلم يكفه خلع اليشماغ، بعد السترة والعباءة، بل عمد الى تحريك المهفة، على نحو عصبي.

وكانت هي الامسية الثامنة لملا نعمة وحمزة بن خلف التي يقصدان فيها قرية الشيوخ على التوالي، بعد ان نقل الشيخ جهاز الراديو من القصر الى المضيف، ليشبع فضول الفلاحين لاخبار المعركة بين الجيش العراقي والجيش البريطاني..

رد الحاضرون تحية الملا وحمزة بما يشبه الهمس، ولم يمسّ احد عليهما بالخير.. فتوجها اسوة بالحاضرين الى الراديو يصغيان باهتمام..

كان واضحا ان الجميع ينتظرون اذاعة نبأ هام.. همس معلّم القرية (مهدي) بأذن الملا:

– الكل ينتظرون برقية الشيخ اللي دزها تأييد للحكومة.. وساعة السودة الجابتني لهالمدرسة!.

شرع المذيع يتلو برقيات التأييد، وكانت الثامنة، في ترتيبها بين البرقيات:

(من فالح الشيخ سعدون المهلهل رئيس عشائر السياح الى فخامة رئيس الوزراء المحترم . انا وعشائري نؤيدكم حتى آخر قطرة من دمائنا . ونحن على استعداد لترك حصاد الشعير والمباشرة بحصاد الانگليز..)

استطال عنق الشيخ مزهوا . ضحك معلم القرية الآخر (عبد العال) وقال

بحماس:

- عاشت ايدك ابو ضاري على هالبرقية الرنانه!

وكانت في الحق من بنات افكاره، وبخط يده، وليس للشيخ منها سوى التوقيع .

همس ملا نعمة بأذن المعلم مهدي:

- واللّه عاد گول وفعل!! عنده زلم تهدل الايد.. تحتل لندن بيوم وليله.. مخصوص ملا علي وداود أبو البينه!!.

وحين رجع الملا الى اهله، ووجدهم بانتظار للوقوف على آخر الانباء، بادرهم بلهجة اليائس الساخر:

- اتبين الحسبه فاشوشيه.. والسالفه ماچلها الثور.. ما دام فالح وزله يحصدون الانگريز بالمناجل!!

ثم اعاد عليهم حكاية البرقية.. والجو الذي اصطنع في الديوان لسماعها.. فلهوج خلف مقاطعا:

- بعد بيتي ابن سعدون.. داع اسم العشيره من الراديون!! عز اللّه ثنية مهلهل ما خلت.. بيها اسباع!

فغمغم حسين بصوت خفيض:

- بيها اضباع!

* * *

انشقت القبور عن (السبلان) وبُعثت من جديد، بعد ان تعّذر الحصول على ورق لف السكاير . القى ملا نعمة (قوطية التتن) وسط الديوان وقال:

- واللّه ما اشرب التتن بالسبيل لو ينگطع ورگ اللف مية سنه!

فقال حمزة الخلف:

- لا واللّه خويه.. آنه أسوّي لي سبيل طين.. وانتذر السبيل الكركوكلي المواعدني بيه ناصر .

ثم انشد مقطعا من قصيدة اشتهرت في تلك الايام:

- لوردت حظك يميل اشتر ازناد وسبيل!

* * *

جاء خلف الى حسين، وقد طرأت له فكرة، وقبل ان يطرح ما يدور في ذهنه، ملأ السبيل بالتبغ ثم اخرج زناد سعدون واشعله، مبالغا في اظهار صعوبة اشتعال السبيل من لهبة الزناد وقال:

- شوف.. شوف الموعظة اشلون؟

لم يعرف حسين مقصد صاحبه، فطلب مزيدا من الايضاح عن هذه الموعظة الغامضة . فقال خلف بصوت متهدج:

- آنه لو افتهم چا ضمّيت الزناد من يوم موتة سعدون..

هاي عبره الي.. ضاع ورگك اللف وردينا للسبلان!

تساءل حسين ثانية عن موضع العبرة في كل هذا.. فأجابه خلف:

- سوّاها الجليل عبره.. معناها: ولك يا خلف من راح راعي الزناد الاطاك اياه لازم تدفنه . لكن ابن آدم چبدته ملسا.. تالي ما تالي ضاع ورگ اللف وردينا للسبلان. وشوفة عينك، السبيل ما يورّث من هذا الزناد! ولك يا خلف هاي عبره.. لكن آنه ما افتهم!!

كتم حسين ضحكته واجاب:

- تمام . لو تفتهم چا دفنت الزناد بچفن المرحوم!

لم يفطن خلف الى المعابثة في كلام صاحبه فقال موافقا:

- تمام يا ابو ناصر . تمام .

وتمادى حسين في معابثته فأضاف:

- لو حاط الزناد وبطل البانزيم بچفن المرحوم چان صارت سالفه تنذچر بالتاريخ!

تنبه خلف الى مرمى الكلام، فحرك رأسه صعودا وهبوطا وقال بلهجة عتاب:

- انته گلبك جاسي.. آنه موش مثلك، شسوي گلبي موش بيدي . واللّه يا حسين كلما اتذكر سعدون اذكر عشرتنا الاوليه.. وايام الشباب.. ويتفطر گلبي .

* * *

دأب حسين في كل ليلة على أخذ (الخيرة الاربعينية) للتنبوء بمستقبل الحرب، التي يسميها (صخونه - تطحن عظام الناس سكتاوي!)

امسك مسبحته . فشرع الحاضرون بذكر ابيات (الابوذيه) يقول الواحد منهم اسم البيت:

- ابو ملوّه..

- ابو ونصار..

- ابو والحگ..

ويسقط حسين حبة من الاربعين مع ذكر اسم البيت . وحين بلغ (الخرزه) الاخيرة طلب من صاحب البيت ان يتلوه:

**(امدهلي وارد اضربك بيس واكراك**
**واعلمنك للبس البدن واكراك**
**بعزم اللّه اوچّر فوكك وكراك**
**واهلسّ ريش جنحانك بديّه)**

تساءل الحاضرون:

– المن نويت؟

– المن الخيره؟

فأجابهم حسين:

– لهتلر..

علق خلف بحماس:

– اي واللّه.. الانگريزي صار له اسنين لابس كرك الرياسه.. المنعول والدين ينراد له واحد مثل الهتر يهلس ريشه .

واضمر ثانية.. فصادف الحبة الاربعين هذا البيت:

– والحظ...

– والحظ...

شسوي للبخت لومال والحظ
يجيب لصاحبه وين الرديّه .

وحين سألوه لمن اضمرت، اجاب متحيزا:

– نويت للانگريزي.. .

وشجر بينه وبين ولده ملا نعمة نقاش بسبب حماس الملا للجيش السوفيتي وزهوه بأنتصاراته. فقال حسين:

– اسمع.. آنه بيني وبين الانگريز عداوه.. عداوه وكسر عظم . كلمن ايحارب الانگريز آنه افرح له.. لا اتگللي هذوله الروس حكومة عمال وفلاليح.. عساهم حكومة ملايكه.. هاي ما افتهمها.. آنه ضد الانگريز على ظهر ابو اشهبا.. . وكل اليعاديهم صاحبي!!

* * *

واذا ما اغتفر للحرب كثير من مساوئها، فان واحدة لم يغفرها خلف ابدا، لم يغفر تعذر الحصول على كفن لغافل.. الا بعد تقديم عريضة لدائرة التموين.. وبسبب من ذلك تأخر دفن الجثة يومين..

اجهش بالبكاء وولول:

– ويلي ويلي يربي.. حتى جفن الميت بالتومين . ياربي لو ماخذ اعمارنا من چان الخام چثير!

وعقّب حسين على ذلك بشتيمة لفالح بن سعدون:

– المنعول والدين ضام الخام.. اطوال اطوال.. وما يطي منّه چفن لغافل.

ولم تكن التهمة جزافا، فقد عرف الناس الشيء الكثير عن تلاعب فالح بكوبونات تموين العشيرة.. وتزويره لالف دفتر نفوس.. حتى اصبح من كبار المضاربين في السوق السوداء، بالاشتراك مع الحاج محمد..

* * *

يوم قرر ملا نعمة الزواج، اعلن انه لن يشتري ثوبا واحدا لقريبات

العروس، فاستقبح حسين عزمه، واقترح ان يدّبر الثياب بأية وسيلة.. لكن ولده اجابه:

- يا بويه الوادم تعرف اشصاير بالدنيا- حتى چفن الميت بالتموين.. تعذرني الوادم تعذرني..

فلم يقتنع حسين بهذه التبريرات، وقال ساخرا:

- اتريد اتسويه مثل عرس جدتي- اللّه يرحمها- اتگول:

كل سياگي عجل ادبس . وجهازي ثوب كيشي.. وغراض العرس سمل ايزار.. وعشى ليلة الزفه صحن حميض!!

* * *

كانت امسية خريفية.. والجو في غاية الاعتدال.. ولا شيء يستأثر بأهتمام الفلاحين ويثير قلق حسين غير اخبار المعركة بين آل عايد وشرطة القوة السيارة .

رشف فنجان القهوة بتلذذ، ثم ترنم بواحدة من هوسات آل عايد:

**باشينا زلازل واصكر البيكات**
**اجينا بجيش چلته ما يحسب المات**
**حاصرنا المعصيه والمعاون بات**
**ظل ملچ الموت ايحوم اعليه .**

- شتگول بيها يحسين؟

- الحسبه موش هينّه..

- ايگولون فوگ الخمس مية شرطي .

- ابشر يلواوي الشرطه اسمان!

وجاء ولده ملا نعمة ليعلن بحزن:

- گومتهم الشرطة..

ضرب حسين كفا بكف وقال:

- عرفتها..

ثم اصغى لتفاصيل المعركة.. وبعد قليل ضعف تركيزه. كان آخر عهده بأقوال ولده: ان الطيار الذي حوّم بطائرته ورّش الفلاحين برشاشته هو ابن اخ الاقطاعي الذي يملك مقاطعة (التساعين).

كف عن تحريك مسبحته- شرع يحاور نفسه:

. . ولكن طير الابابيل الجديد يسوقه ظالم ليحصد المظلومين يا سيد علي الكربلائي!! اسرار لا تدركها انت ولا حتى انا.. قالت له يريد ان يغتصبني فأجابها لا تدركين مراميه ومقاصده .

(ولك صخمّني) ودار حول قبة الطين ولطخها بالحناء.. يداس بالاقدام يا سيد علي الكربلائي؟! لم ار فالحا يدور بطاسة حناء يلطخ بها جدران المقامات.. ولم يذهب لزيارة العتبات المقدسة.. لكن غافلا كان يجمع محصوله السنوي ليسد نفقات الزيارة بعد ان تأخذ خمسها يا سيد علي الكربلائي.. كيف ينبت جناح لطير الابابيل حتى يرمي الكعبة؟! لم تقل لفالح موعظة مثل تلك التي كنت ترددها على مسامع غافل: لا تنظر الى من هو فوقك.. انظر الى من هو دونك. لترض بما قسم لك.. اي شيء دونه؟ لا شيء . حتى الثعالب اكثر حرية وارفه عيشا! ولم يجد الثعلب نفسه يوما في حاجة لحمل طاسة حناء يلطخ بها جدران سيد سراب. اما عزم القوي

فعل.. دون حناء ولا دعاء. لكن غافلا وقد امضى ليلة شتوية باردة في هورة البترا، يسقي ارضه، تجمدت اطرافه.. فلبد في حفرته يستقبل شمس الصباح، عاجز عن السعي الى عباءته المطوية قيد خطوات عنه . جاء الواوي وبال على عباءة غافل.. وهو ينظر.. ولا حول ولا قوة له.. جز على اسنانه ورمق السماء بنظرة ذليلة ودعا (وين العباس وين ابو فاضل بجاهك عد ربك.. كون يجلبني چلب . حتى اركض ورا هاليحوم والزمه، واگطهه اتگطعّ!). اما ذاك فقد ركب طير الابابيل الجديد وحصدهم برشاشته دون دعاء ولا حناء.. وانتظرت هتلر ليسحق الانگليز وصنائع الانگليز واخذنا له (الخيرة الاربعينية) ودعونا له ان يصير (چلب) حتى ينتقم لنا من الواوي.. ولكن نعمة يقول بينه وبين الهزيمة اشهر وتنتظره اشر ميتة.. انها اسرار يا سيد علي الكربلائي.. (الخمس) واذا بهم يأخذون ثلاثة اخماس ثم زحفوا فأخذوا (گفة العلويه) واخرى للكتّابية ثم للگهوچيه.. وللغاطوط وللكيرخ وللچايول وللعنبري وللشحنه وللمامور واخيرا خمسة بالمائة لا احد يعرف وجهتها.. فرفع ناصر صوت الاحتجاج وتشاجر.. وارغم على الرحيل فقال الضعفاء اهل (طوس الحناء): ناصر متهور مغرور.. ما كان له ان يكون البادئ بالصدام.. وها هم يقولون (آل عايد متعافين.. يريدون يعصون بگاع المنتفج) فمن يحك جلدك يا اجرب اذا حرمت على نفسك استعمال اظافرك؟!

انه نعاس ليس الا.. هد الجسم القوي.. يتهاوى بمجرد ان يغشاه النعاس . اراهن بدمي ومسبحتي وبثورة العشرين.. ان خلفاً وحده- لو افاق من هذه الغفوة - بمقدوره ان يهزم فالحاً وكل الذباب الملتصق به..

حدّق في وجه خلف لبعض الوقت. تذكّر معركة (العركوب)، كان شاباً وجدائله اطول من ذراع حرّكتها الريح فابتعدت احداهن.. فأصابها الرصاص.. ولم يستجب لصيحات ابن عمه (ولك اكعد يخلف.. اكعد..) فجلجل صوته كالرعد:

كلمن بيومه.. كلمن بيومه.. بلابوش تفگ!

# الفصل الثاني

مرة قال خلف:

- اهل البترا يصبرون حتى على افراكك التتن ولا يصبرون على افراكك الغيل والغال.

وادرف موضحا:

- اليتعارك وي مرته ايسوي عليهم فضل چبير.. ثاني يوم يلوچون السالفه، وبالليل ايحطولها بنايج وتخاريص، وثالث ليله، كون ماعدهم غيرها، ايفصلون الحچايه من حلةٍ وجديد.

ومع ذلك ما كان بمقدورهم ان يظهروا اهتماما بالخبر اكثر من اهتمام البصريين والبغداديين الذين قرأوه في نهاية تقرير صحفي موجز (... وطالب العمال بحرية تنظيمهم النقابي، وان لا يطرد عامل اعتباطا، وان يتقاضى اجرا يليق بانسان.. فأصغت شركة نفط العراق، لا لتلبي، بل لتدبر امرا محكما، يطفي الشرارة في مهدها.. وانطلق رصاص مجنون كأنه من بقايا ذخيرة هتلر.. فأنجلت مذبحة (گاورباغي) عن عدد من العمال قتلى وجرحى.. وفي ضحى اليوم التالي شوهدت جثة تتدلى بين اغصان شجرة كبيرة.. كانت جثة عامل النفط ناصر بن حسين).

ادركوا، على نحو غامض، ان الخوض في تفاصيل مقتله محظور علانية فقد كانت سيرته الحسنه لا تجري على السنتهم بمحضر من حوشية الشيوخ، بعد ترحيله من البترا، اما وقد اختار خصومة الدولة وشركة النفط كنقابي نشيط، فلابد ان التساؤل عن اسباب مقتله يوصل بالضرورة الى ذكر المطاليب التي رفعتها النقابة وما الى ذلك من كلام محرم.

لقد كان استشهاده مدعاة حزن واسف لاهل البترا..

ولكن الخبر في افواههم له مذاق الحنظل، ولا يحتمل القيل والقال، مثل حادث انتحار فيصل بن سعدون. الذي وجد مقتولا وبجانبه مسدسه. وانتهى التحقيق الرسمي الى انه مات منتحرا.

تهامس الفلاحون، والسنتهم تدور دائما وبها شوق للكلام مثل شوقها لملامسة الطعام، فراحوا يربطون الجزئيات ليصنعوا منها شيئا كليا، فان لحظوا ثغرة في ما صنعوا، تطوّع إحدهم ليضيف من عندياته.. لكن الشيء المؤكد ان فالح بن سعدون كان قاسيا في معاملته لاخيه، مُقتّرا عليه شديد التقتير بالمقارنة مع اسرافه على الملذات والولائم الخاصة. ويعرفون جيدا بان فيصلا اعتزم دخول كلية الحقوق وكانت امنيته ان يصبح (قيمقام) وبعدها (متصرف) وتلك امنية ابناء الشيوخ. وطالب اخاه بمصروفات اضافية تناسب اقامته في بغداد، فرفض طلبه.

وسمع اكثر من فلاح صياح فالح بأعلى صوته:

– ما عندي افلوس.. ابوك ما خلّف لي قاصة.. ما خلفّ غير الگاع.. وهاي الفلوس من چد اذراعي وشغلي بالتجارة..

ويومها اعلن فيصل: انه صرف النظر عن دخول كلية الحقوق وقرر الاقامة في الريف، بعد ان يقتسم الاراضي، بالتساوي، مع اخيه.

بعدها سمعوا فالحا يهدد ويتوعد..

وتكاملت عناصر المأساة بموت ام فيصل حزنا عليه، بعد اسابيع من اغتياله.

* * *

اقلع حسين عن محاولة ترحيل عائلة ناصر الى الريف، مقتنعا بما

عرضه ملا نعمة (فاضل يتخرج معلم هالسنه، وكامل ساعدوه جماعة مرحوم ابوه ولگوله شغل بمطبعة.. واجروا حوش ابغداد.. وحالهم ماشي والبنيّه تساعد امها على شغل البيت..)

انصرف الى نفسه يجمع شتات قواه وشجاعته بقصد الوصول الى حالة من التماسك الذي يغيض الشامتين . وكرر هذا الحوار لنفسه دون زيادة او نقصان عشرات المرات:

تذكرّ انك شغلت الدواوين بحكاياتك واشعارك عن الشجاعة والشجعان . تذّكر يا حسين انك رويت حكاية الام التي جاءها نعي ولدها، في ثورة العشرين، على صورة هوسة (چن لا جبتي ولا لوليتي.. .) وردّت الام بشجاعة تفتقر اليها انت يا حسين، الذي بالغوا بشجاعتك وحكمتك: (ربيته ولوليت لهذا...)

صار كالمتسلق قمة، لم يطأها قدم انسان قبله، يوشك ان يبلغ قمة الشجاعة، ويتجاوز حزنه، ولكن نحيب خلف يرميه من حالق، فيجد نفسه وجها لوجه امام عاطفته .

فيتمنى: لو كانت الشجاعة تختزن . لو كان الفرح يختزن. لو كان هذا القلب طوع الاشارة.. يا ايها القلب الملعون الذي لا يُركن اليه في الملمات. لو طاوعتك يوم (العرگوب) ويوم (الجوابر) لما اصبحت في هذا الموقع: اشتم الرجال فلا يجرأون على تجريحي، بكلمة واحدة، فليس بميسورهم شطب الماضي، رغم كل الحقد. لقد غلبّت الشك فيك.. ادركت ان ثقتي فيك مغامرة خطرة.. فعقلت ركبتي باليشماغ وصمدت للرصاص.. والآن كيف السبيل الى سيطرة محكمة عليك؟ الى حد الابتسام امام الشامتين؟

ولكن هذا خلف.. الذي لم يجد حاجة لعقل ركبته في المعركتين.. هذا الرجل الذي تميز عن سواه بالوقوف على مترب النهر.

وكأنه لا يسمع ازيز الرصاص ولا يرى دخان البارود.. ها هو يجهش بالبكاء وكأنه المفجوع قبلى ويذرف الدمع بغزارة اكثر مني..

* * *

وتراءى للناس انه فخور باستشهاد ولده، الذي وقف ضد الدولة والانكليز كما وقف بوجه بيت مهلهل من قبل.

وقيل عن حسين في الدواوين، واللقاءات اليومية وبين الفلاحين في حقولهم:

. . زله اكوى من الشدايد..

. . سامعين بوگفاته ايام الحرايب..

. . الحزن والخوف ما يندل باب گلبه..

وسمعوه يردد من حين لآخر:

– آه يناصر.. استافوا الأنگريز والشيوخ مني.. اشلون اگدر آخذ ثارك؟ بيش آخذ ثارك؟.

وحفظ الكثيرون عن ظهر قلب، هذا البيت الذي يُكثر حسين من ترديده:

**لا اسبوع الهم وادبره والخلك من وسع الابره**

**والكلب مثل المعبره ولد، وإمخليه الثاني**

ثم وهنت قواه وتهدم جسمه، كشمعة تذوب بصمت..

وصدقت نبوءته:

– ينعمه.. روح لبغداد جيب اولاد ناصر حتى اشوفهم واموت.

فقد فارق الحياة بعد اسبوعين من رؤيته لاحفاده .

*  *  *

حزن عليه خلف اكثر من ملا نعمة، وبكاه مثلما بكته ارملته..

ضحى كل يوم تتجمع النساء حول خلف، في ربعة حسين. فيبدأ البكاء والنعي.. وبلغ من الحزن حدا جعله يحاكي النساء في (النعي) يرفع صوته بأبيات لفدعة الشاعرة (برواية حسين نفسه) وهي تنعى شقيقها، واسمه حسين كذلك:

**حسين السحاب وهمل مايه**
**يموحان يمشيّل الگرايا**
**يعربيد يا شيخ الحيايا**
**على گرصتك ما تنفع آيه**
**يبكّار واخوانك ثوايا**

ويوم استدعي ولده فرهود للخدمة الاجبارية في الجيش، صرفته المخاوف عن المآتم اليومية.. وتشبث بأمل تدّخل الشيوخ لدى دائرة التجنيد لتخليصه من الخدمة العسكرية كما خلصّوا خادمهم داود ابو البينه، وابن الملا.. ونسيب السيد ابو شراره.. وآخرين..

حين يئس من مساعدة الشيوخ، وسيق فرهود للخدمة العسكرية جاهر خلف بالقول:

– اللّه يرحمك ياحسين، بس انته تعرف بيت مهلهل زين.. باطلين الغيره، نفعهم، على گولة ابو المثل، لخالتي وابن خالتي واليزود لجارتي!

وفوجئ خلف بأخبار سوق الجيش العراقي الى فلسطين ( عام ١٩٤٨ )

وحدوث المعارك بين الجيوش العربية واليهود.. فأستبد به الخوف والّم به خاطر مرعب: سُيقتل فرهود كما قُتل ناصر . نهايتنا غريبة وشاذة.. مات سعدون وتقاتل ولداه . وسُجن ابن غافل قاتلا.. وقتل ابن حسين على يد شركة النفط الانكليزية فمات حزنا عليه.. ويُقتل فرهود على يد اليهود واموت حزنا عليه.

رفع صوته كالمعاتب:

– ليش ربي؟ ليش هيچ تسوي بينا.. شمسوين وياك؟

تراءى له موته مقرونا بمقتل فرهود.. اجهش بالبكاء . انكّب على حائط مقام سيد سراب. تذكّر اصل وجود سيد سراب:

ولكن يا خايب يا خلف الم تبتدع سيد سراب من خيالك لتحول دون ثرثرة حمزة ومعابثاته؟ الست من وضع اول حجر ليكون علامة لمجرى مقترح عهد ذاك؟

كيف غدت المزحة حقيقة.. وتحوّل الوهم الى واقع ملموس ؟ غرست بذرة وهمية من ثمرة خيالية وها انت تستظل بالشجرة ؟! بنوا على المكان حائطا.. ولطخوه بالحناء من كل جانب.. والزوار لا ينقطعون.. وصار عبيد المنتاز سركالا على العلوه و (قيمًا) على المقام.. فيتوافد الزوار على بيته حاملين النذور.. دراهم، ودجاجاً..

وهاهم يتحدثون عن كرامات لا اول لها ولا آخر . تضاء شمعة من تلقاء نفسها في ليلة الجمعة وليالي الاعياد..

ولا زالوا يرددون (ما تنبني گبه الا على وجه صالح) وتتجمع القرائن والادلة على ان في الامر (سر).

لقد كنت واسطة لتنفيذ ارادة الهية..- دون علمي.. ولابد ان مشيئته، سبحانه وتعالى، اجرت تلك المزحة على لساني.. وقبل هذا جمعت الحجارة وفي هذا المكان بالذات . ولم يسبق لي ممارسة العبث على تلك الصورة ابدا.

واني لاذكر تلك القوة الخفية.. حملتني على جناح سحري فجمعت كسر الطابوق والفخار والاحجار- يا سبحان اللّه- لقد كنت واسطة لتنفيذ ارادة خفية.. وأقطع ان في هذا المكان قبر لولي من اولياء اللّه . ولابد ان يكون اسمه سيد سراب. والا فما معنى كل هذا ؟ يكفيني شرفا كوني السبّاق لتنفيذ تلك الارادة الالهية..

ودب اليه النعاس بلا استئذان، فتدلّى رأسه حتى لامس كتفه.. افلتت اصابع كفيه المشبوكة على ركبتيه فسقط جانبا..

عضّ اصبعه ندما . كان عليه ان لا يستيقظ، ولو لدقيقة واحدة . ويسأل السيد الجليل ذا الوجه الصبوح الذي يشبه الى حد كبير السيد علي الكربلائي ويعتمر شيئا اخضر شبيه بالكشيدة.. لكن له حاشية تذكّر بيرنيطة مسّاح التسوية.. ويمتطي السيد الجليل صهوة جواد ابيض كالحليب . تذكره خلف تماما: ياله من حصان عجيب ثنى ركبتيه كالبعير.. وبرك على الارض ليسّهل على السيد ترجّله.. بقي الحصان هكذا حتى انتهى السيد الجليل من تأشير دائرة على الارض.. في ذات المكان الذي وضعت فيه اول حجارة واسميته عبثا سيد سراب.. كان عليّ ان استجير به واكلفه بأنقاذ فرهود من محنته واعادته سالما.. وكان علي ان اتبسّط معه في الحديث وابحث جملة امور.. ان لهذا المقام شأنا عظيما وان هذا

الحائط البسيط لا يناسبه.. وها هي ذي عبرة اخرى فأعتبر يا خلف!!. نذر علي لئن رجع فرهود . سوف ابذل كل جهدي لا صلاح مقامك يا مولاي..

التفت الى الحائط وقبلّه، ثم بكى . نهض من مكانه وسعى الى حيث برك الحصان..

لمح آثار حوافر حمار: لابد ان يكون حافر حصان السيد الجليل صغيرا مثل حوافر الحمير، وتلك معجزة.

انحنى على الارض وقبلّ آثار الحوافر. حاول ان يتبين الدائرة التي اختطها السيد الجليل.. فرأى آثارا مضطربة وثمة اقدام اطفال.. وقدم رجل لا ينتعل شيئا: لم ادقق النظر في هيئة السيد . ان كان حافيا ام لا.. ولكن على اية حال ان لم يكن قدمك يا مولاي فإكراما لك . وانحنى على الارض ثانية ليقّبل الاثر..

عاد ثانية يطوف بمقام سيد سراب. جدد العهد بأصلاح المقام، اذا ما رجع فرهود وانتهت الحرب مع اليهود.

كأن السماء كانت مشرعة لتلقّي دعوات خلف . فقد رجع فرهود وانتهت الحرب مع اليهود على نحو قريب مما وصفه فاضل بن ناصر حين زار بيت عمه ملا نعمة، واستمتع بملاطفة خلف ومعابثته وراح يروي قصة مختلفة عن اشتراكه في حرب فلسطين:

– يا ابو حمزة هاي ايدي تشهد.. اشلون طبّيت العركة واشلون طلعت منها..

تطلّع خلف بأشفاق الى ذراع فاضل، المجبرة، المربوطة الى عنقه، فحرك رأسه من فرط حماس وقال:

– بعد شيبي يا ابن ابن حسين. الشجاعة الك ولأهلك.. جدك بالعركة شد ركبته بچماغه.. وابوك ماهاب رشاشات الحكومة والانگريز.

استعاد فاضل ذكرى ذلك اليوم، وادق التفاصيل.. كيف لمح على البعد موكبا تتصدره لافتة كبيرة (موكب العمارة يعزي الشعب بشهداء وثبة كانون) فساءل نفسه: وما الفرق بين العمارة والكوت؟ واندس وسط الموكب.

وقال خلف:

– كل الزلم من شافت مرحوم جدك عگل ركبته ركدت گلوبها.

وجاء مزاج فاضل للمعابثة فتصنّع الجد في كلامه: كنت في فصيلة يتوسطها سيدنا الوصي على العرش . ويتقدمها جلالة الملك عبد اللّه.. وفجأة اغارت علينا طائرات اليهود فهرب افراد الفصيلة وبقينا نحن الثلاثة: جلالة الملك وسمو الوصي وانا. فانبطح جلالته على الارض وراح يرمي الطائرات حتى اسقط ثماني طائرات.. اما سيدنا الوصي فقد اسقط سبع طائرات ونص!

ولا ادري كم اسقطت برشاشتي....

تحرك رأس خلف ثانية من شدة الانفعال واغرورقت عيناه بالدموع ثم ردد .

– بعد شيبي.. بعد شيبي.. الشجاعة الك ولأهلك.. ذيج السنة....

اوشكت اللعبة ان تفتضح، فقد الحت عليه الضحكة وحاصرته ذكرى دعابة صديقه شوكت بغدادي (لو ميت چان گلنا عليك ياشهيدا سقط بارض الميدان) فمن الزقاق المؤدي الى الميدان هجم المسلحون بالهراوات وانقضّوا على المتظاهرين وهم يهتفون: اللّه غايتنا.. فلسطين عربية.. وكان

فاضل من بين عدد كبير من المتظاهرين الذين اصيبوا بجروح- وبينهم فتيات كذلك.. تحسس ذراعه (المجبرة) وقرر مواصلة الحديث على النحو الذي بدأه:

- وبعدين يا ابو حمزة.. الحچايه ما خافيه عليك.. غلبونا اليهود.. . لكن احنا الهم!

واطلق لضحكته العنان..

قال خلف تعقيبا على هزيمة افراد الفصيل:

- اسمع . ولو انته دارس مدارس وتفتهم. لو هذوله من فرد عشيره چان ما شردوا . من حيث واحد يستحي من الآخر.

بعركتنا الچبيره.. بعضهم خفّت گلوبهم رادوا يشردون لكن من شافوا جدك عگل ركبته ومهلهل ذب عگاله وتنخّا.. محد شرد..

واقترح خلف- لتحقيق النصر- ان تكون الجولة القادمة مع اليهود على هذه الصورة:

- تتجدم عشاير ربيعة. كل عشيره تحت بيرغها، وجدامها الشيخ. وكل فخذ يتبع ريس فخذه.. ووراء ربيعة عشاير بني لام. واظن هذا يكفي - لكن ميخالف.. ابو المثل ايگول: اتحزم للواوي بحزام سبع. خل تجي عشاير المنتفج..

قال فاضل وهو يغالب ضحكة لجوج:

- جدي ابو حمزة . هيه هم رايح اتصير عركة عشاير، انشا اللّه، والشي اللي تفكر بيه گاعد يفكرون بيه المسؤولين فعلا..

- چا شمعطلهم.. بلابوش يهود ؟!

- عدهم بعض الامور ايريدون ايرتبونها.. معلومك يا ابو حمزة السياسة بحر ما يتگيش!!

*  *  *

استعذب فاضل حكايات خلف عن غابر ايام بيت مهلهل: كان سعدون يقاسمه (گبصة البرنوطي) ويستعير زبون حسين اذا سافر الى المدينة.. وذات مرة بعث سعدون من يحضر خلفا صبيحة يوم العيد.. فوجده حاسر الرأس.. لأن العجل اكل يشماغه... وباتوا ثلاث ليال لا يطعمون الا الخبّاز وحده.. ومرة.. ومرة..

قال فاضل لعمه ملا نعمة: يُخيّل اليّ ان هذا العالم الذي يتحدث عنه تفصلنا عنه آلاف السنين!

واحسب ان شخصيته وحكاياته ستلهمني شيئا ما.. بدأت افكر بأسلوب يناسبها.. اسهل شيء كتابة المقامة.

أمسك فاضل قلمه وقلب علبة السكائر وقال:

- هسه اراويك نمونه من المقامه.

*  *  *

كان مقدرا لفرهود بن خلف ان يتزوج سكونه بنت عمه جودة، بيد ان اصرار جودة على اقامة فرهود في بيته (گعيدي) انشب الخلاف العائلي، وانتهى الى قطيعة رحل اثرها جودة عن ال خلف فتزوج فرهود فتاة تمت بصلة القربى لزوجة اخيه حمزة. عصر اليوم الذي تلا (الزفّه) اقبلت سيارة الشيخ فالح، الجديدة، ذات اللون الذهبي، تتهادى في سيرها، يقودها الشيخ بنفسه، وليس معه سوى خادمه داود ابو البينه، يحمل بندقية برنو

جديدة، بهرت الفلاحين اكثر مما بهرتهم السيارة.

سوّي الفراش في ربعة خلف ليناسب حضور الشيخ فالح بن مهلهل . واحضروا وسائد العروس، لتحتل صدر الديوان، متكأ للشيخ.

هرع الحاضرون لاستقباله. اسرع داود، يمسك البندقية بيد ويفتح باب السيارة باليد الاخرى.

كان آخر المستقبلين خلف. سلم الجميع على الشيخ، بتقبيل أطراف اصابعه، عدا ملا نعمة، الذي اكتفى بالمصافحة.

اندفع خلف ليعانق الشيخ فالح بن سعدون، فلم يتيسر له العناق، لان الشيخ أبعد وجهه، فأستعاض خلف عن العناق بتقبيل الكتف.

يئس حمزة من تحرك الشيخ عن مكانه، جوار السيارة، فأستحثه قائلا:

– محفوظ اتفضل اخذ راحتك..

رد الشيخ فالح من منخريه:

– لا . ما اگدر، يعني مستعجل.. مدير الشرطة معزوم عدنا، هسا يجي..

شعر حمزة بحراجة موقفه، امام الحاضرين، فألح ثانية للخروج من المأزق:

– محفوظ اشوية.. على گد ما تشرب الگهوه.. هز الشيخ رأسه نفيا وقال:

– لا. بس.. ميخالف جيبولي الگهوة لهناه..

ركض حمزة ليأتي بدلة القهوة: بعض الشيء خير من لا شيء.

لاحظ الشيخ من وراء نظارته الشمسية علامات انكار واضحة على وجه

ملا نعمة.

ولم يحتمل خلف هذه الاهانة.. فتحدّر معاتبا بصوت اجش:

– ابن سعدون.. يا ابن سعدون. ليش ما اتطب بربعتي؟ چنت آنه وابوك فرد بيت.. ما بيناتنا بس الحرمه اللّه...

تناول الشيخ فنجان القهوة متضايقا، ثم تأفف وقال:

–.. چنا.. وچنينا!! هاي شيخلصها!

عاود الكلام خلف بصوت مرتفع:

– چنا وچنينا! ما معجبتك؟ ليش؟ صار الها الف سنه؟

هذا ازناد ابوك بعده بجيبي بلابوش دنيا!

سحبه فرهود من ذراعه بغضب وهمس له بنبرة حادة:

– اس . عيب . جدام الوادم.. لا تفضحنا.. لا اتسويها مثل روحتك لفاتحة ابوه..!!

اخرج الشيخ فالح ورقة من فئة عشرة دنانير ودسها في جيب حمزة، وكانت دلة القهوة تشغل يده اليمنى، فيما تشغل الفناجين يسراه...

ثم فتح باب السيارة بنفسه وجلس وراء عجلة القيادة غاضبا.

وانطلقت السيارة بطيش، دون ان يودع الواقفين بكلمة او ايماءة.

ارتفع صوت فرهود مؤنبا:

– شنهي طرگاعتك يابويه بليت الوادم بهالزناد الاكشر!؟ اشصار ؟ سجادة النبي الچان ضامها السلطان بخزنته ؟! نعلة ابو الزناد لا ابو أهله.

ارتعش خلف . ثم حرك عكازته بكف مرتجفة وصرخ:

– گوم . گوم!! ايعلمني للحچي! واللّه لوما عريّس چنت اچّسر العصا على راسك!.

تدخل حمزة لوقف الشجار وقال بغيض مكتوم .

– يا امعودين فضحتونا جدام الوادم.. خلوّا سوالفنا بيناتنا!

ولما غادر الربعة حمزة، ليعيد وسائد العروس، قال ملا نعمة بقصد التحريض:

– دگة الشيخ محد امسويها!! يجي يتبارك للعريس وما يطب بيته؟!

قال خلف وكأنه يخاطب نفسه:

– صاروا ما يستحون من المنگود..

واصل ملا نعمة تحريضه، لانتزاع شتيمة صريحة موجهة للشيوخ من فم خلف:

– چان گلت على احساب خلف.. هذا عمي وصاحب أبوي اگعد اشويّه بربعته؟!

غمغم خلف بعبارات غير واضحة، ثم رفع صوته:

– محد چان يعرفهم زين، غير مرحوم ابوك.. كل احنا اگلوب سمچ!.

اقلع الملا عن مواصلة التحريض وقد جاء خلف على ذكر ابيه.. حرّك خلف رأسه وقال بلهجة ندم:

– اللّه يرحمك يا حسين.. بس انته زله..

ثم انشد موالا حفظه عن حسين.. تنبه ملا نعمه الى آخر الموال:

**تنعد بلادي واعدها من الارض منفاي**

**تا اللّه ما ساعتن ذمها يكع من فاي**

**موش الارض لچن الناس الذي فيها..**

تفحّص وجهه وهو ينشد.. تذّكر قول ابيه يوم بلغه صراخ خلف في مجلس فاتحة سعدون:

لقد قسوت على خلف.. انه لا يستحق القسوة. انتم لا تعرفونه.. شجاع وجسور.. وقد يسخو بالرغيف الذي لا يملك سواه.

ما نطق الكذب طول حياته. واحسب ان الصدق جذر شجاعته وسخاءه. والصدق مناعة ضد كل رذيلة: ولكن يا أبي لا يصح الاطلاق في مسألة الصدق والكذب، ففي ايامنا هذه غدت الدنيا اكثر تعقيدا.. لا تخادعني يا نعمة. ما عقدّ الدنيا إلا الكذب.

وسمع خلفا يقول:

– گالها المرحوم وصدگك.. راحوا للانگريزي هوه وصلال.. وچانوا مثل عداوة الچلب والبزون.. ردّوا من بغداد صدگان ما يطير بيناتهم ابو الزعر.. ومن ذاك اليوم، صاروا همّه بكتر واحنا بكتر.

ولكن يا أبي.. لا تخادعني يا نعمة. الجبان لا يقول انخلع قلبي هلعا ووليت الادبار هاربا، ولهذا يلتجيء للكذب فيغزل وينسج ليخفي هزيمته . وقد يتمادى في النسج فيوهم الآخرين بشجاعته وانه كان مهاجما– بطريقة لا يفهمها سواه– وليس هاربا . وقد تحالفه البراعة فيصدق الناس زعمه.. ولابد من امتحان حقيقي.. اللصوص والبخلاء لا يصدقون.. قل لي هل سمعت خسيسا يجاهر بخسته ؟ الكذب هو الذي عقّد الدنيا..

وسمع خلفا يقول: اللّه يرحمك ياحسين.. ثم انشد بيتا من التجليبه:

**اجلبنك يليلي والهموم اطعوس**

**نخرن سبّاح كلبي مثل نخر السوس**
**اداري چم ننزل واصبر لچم ديوس**
**واسكت لو حچي اليتنومس بعيبه؟!!**

لست هذا ما قصدته - اردت القول: كانت دنياكم على درجة من البساطة تحتمل الصدق الذي تدعو اليه اما اليوم فأننا نعيش في ظل نظام معقد.. وسبل السياسة ملتوية.. وهذا تبرير للكذب. اعطني مثالا مفهوما. خذ مثلا الاحزاب المعارضة للسلطة، هل تنجح في عملها مع الصدق المطلق الذي تريده؟ واي ضرر في ان يقولوا الصدق ولا يكذبون؟ لا اقصد حديثهم مع الناس بل قصدت تعاملهم مع السلطة . فلو وقع احد الثوريين في قبضة السلطة وطولب بالاعتراف على زملائه.. هل يلتزم مبدأ الصدق الذي تدعو اليه ويكشف اسرار منظمته؟

ولكن يا (ولد)- روحي فداء الملالي!! كيف سمحت لنفسك ووضعت المسألة على هذه الصورة الساذجة؟ الم يكن هذا الثوري قد تعاهد في الاصل مع منظمته على صيانة اسرارها وقال انني قادر على حمل الامانة؟ واذن فعدم اعترافه.. وصيانته لاسرار منظمته هو الصدق بعينه . انه عاهد وصدق فلماذا قلبت المثال على رأسه؟! لو سألك اللص اين تخفي بندقيتك ليلا، هل تجيبه في مكان كذا؟ لو كشفت له المكان الحقيقي لكنت كاذبا ولم تصدق لان الاصل في القضية كونك عاهدت نفسك على صيانة بندقيتك ولم تعاهد اللصوص على تسليمها يا ملاّتي!! فلا تبرر الكذب على هذا النحو.

اما صدق خلف فقد تجاوز الحد خطوة واحدة.. والحبة الواحدة الزائدة

في كفة الميزان ترجحها على الاخرى فيبدو الميزان مثل هذا الذي في السماء.. وندعوه ميزان الباطل!

وارتفع صوت خلف يهدد ولديه:

- موش حسبالكم شيبّت وضعفت وحگ العباس ابو فاضل عشره مثلكم ما يوگفون بوجهي.. لاتخلوّني اگوم عليكم بها العصى.. تعلمونّي على الحچي ؟ واللّه لوما العشره الطويلة.. چنت افتگ عليهم فتوگ.. ويعرفوني گول وفعل.. لكن.. بلابوش دنيا.

صدقني يانعمة لو كان خلف يحمل عداوة للشيوخ قدر ما احمل، لوقف على الطريق العام يشتمهم صباح مساء.. وقد يحرك يده- ويالها من يد شجاعة لو تحركت في الوقت المناسب.

ولا يذهبن بك الظن - يا ملاتي - انني أومن بالقول الذي ابتدعه الضعفاء وروجه المغرضون: (التقيّه واجبة) انني امقت هذا القول لأنه فضفاض لا تحده حدود.. فقد يحتمي به الديوث.. يرى القوي يدوس فراشه ويغتصب امرأته.. ويتطامن الى هذا القول المطّاط الذي يتسع لكل شيء.. يردده بمذلة ومهانة (التقيّة واجبه).

ارتفع صوت خلف فقطع على الملا سلسلة التداعيات:

- والفرگ بيني وبين مرحوم حسين، هو يشوف بعيد - بعيد.. وآنه شوفي من طول خيالي. هوه عرفهم گبل ثلاثين سنه وآنه هسه عرفتهم.. توني عرفتهم.. اليوم عرفتهم!

اتظنني اجعل من (خلف) بهلولاً.. لأقلل من شأن صراحته كما حاول الكذابون.. ليظهروا الصدق وكأنه اسطورة خرافية.. وقال مشرعو النفاق:

سألها لماذا (ذاك) بالطول و (هذا) بالعرض؟ ضربته على هامته. وتداولوا المأثور: (اليحچي الصدگ طاگيته منگوبه!) لا اعتراض لي على صراحة خلف، ولا عيب في صدقه الا اعتقاده بأن الناس لا يكذبون اطلاقا، وعنده ان ليس ثمة ما يدعو الآخرين للكذب اطلاقا.

سمع (خلفا) يقول بصوت هادئ:

– گال لي ديمتك الك وصدگته.. گال لي هاي ترتيبات حكومة وصدگته.. گال لي ذكرتك بالزناد محبه خالصه وصدگته وگال لي..

فلا تحاول معي عبثا – تبرير نوع من انواع الكذب.. ان البساطة والتعقيد.. والسياسة والعواطف كلها في حاجة الى الصدق مثل حاجة الخبز للملح.. فلا تحبب لي خبزا بلا ملح يا (ملاّتي).

# الفصل الثالث

لم يعد طريق (العلوه) حكرا على سيارات الشيوخ. من حين لآخر تجتازه سيارة اجرة، تقل عروسا او مريضا او جنازة.

راقب الطريق احدهم، ثم اعلن عن مقدم سيارة. قطع بعد قليل انها ليست من سيارات الشيوخ.

ولما اقتربت من الربعة، شاهد الحاضرون بوضوح (استاد) فاضل، فهرعوا لاستقباله مرحبين. لم يغادر فاضل مكانه قرب السيارة، حتى انزل السائق كل الحاجيات، فحمل من بينها (صندوق كارتون) برفق، ودخل به الربعة . داعب عمه، ملا نعمة، وهو يفك المغلف:

– مرحوم جدّي خلفّ لك عدة الگهوة، اللي اتگول عنها: سلعه والها عشر ضروس..

آنه جبت لك سلعه الها مية ضرس!! كل عشر تيام لازم تشحن الباتري.

ثم اردف مشيرا بقبض الكف وبسطها:

– بارك لي.. خلصت من الريف نقلوني لبغداد. وجبت لك الراديو ابو الباتري..

دخل خلف مستعينا بعكازه، وقال بصوت رقته العاطفة:

– اشم ريحة حسين. يا مرحبا بريحة حسين.

ثم عانق فاضلا وبكى.. فاصيب الحاضرون بعدوى العواطف.

دمعت عيون البعض، وتماسك البعض الآخر.. وتعسرت الدعابة على فاضل. فلم يجد شيئا مناسبا للتعبير عن وده واحترامه، لصديق جده، غير اشعال سيكارة وتقديمها لخلف.

عاود عملية ربط الراديو بالبطارية. القى طرف الهوائي من نافذة كوسر الربعة. انبعث الصوت عاليا، فذعر خلف وتكنّى:

- انا ابو حمزة!

ثم اطمأن للراديو الذي سمع عنه الكثير، وليس الخبر كالعيان، وسمع تنفس المذيع، او هكذا تراءى له: تماما كما وصفوه.. ولا سلك تليفون ولا خيط صوف او شعر يربط (العلوه) بالعالم .

وترنم بالهوسة المعروفة (ايگح بلنده وصوته اهناه!).

مرر اصابعه على هيكل الراديو. تلمس الازرار وسلك الهوائي. حاول تحريك البطارية فألفاها ثقيلة. قال باندهاش:

- حسبالك رصاص..

فعاجله فاضل معابثا:

- بلابوش دنيا!

تساءل خلف، دون انكار:

- منين عرفتها البلابوش دنيا؟

- الراديو سولف لي كلشي.. حتى على زناد ابن مهلهل المعتز بيه..

ثم تنبه الى ازدحام الربعه بالفلاحين وكثرة الوجوه الغريبة بينهم : ما اسهل الكلمات التي توجب الاعتذار، ولكن بعد فوات الاوان، اذا كثر المزاح . فألزم نفسه بالجد وتشاغل بالراديو يبحث عن اذاعة جديدة.

جلس الى جانبه ملا نعمة، وبيده ورقة وقلم، وراح يكتب مواعيد نشرات الاخبار واماكن المحطات على اللوح الزجاجي.. ثم تساءل:

- بغداد ما كتبناها..؟

اجابه فاضل بنفس قصير، وقد كوّر انفه، كأنه يشم رائحة كريهة:

- يمعوّد هاي شلك بيها؟ اشتسمع منها؟!

* * *

انعقد ديوان العصر، في ربعة ملا نعمة، وكان الحاضرون يصغون للراديو تارة، ولاحاديث (استاد) فاضل تارة اخرى. لمح ملا نعمة عمامة السيد حسن الكربلائي في طرف هورة البترا، ووجهته قرية العلوة، فأستشعر حرجا مبعثه وجود فاضل: فقد يجاهر ببعض آرائه حول الدين.. وينشب الخلاف بينهما (وبلوه عركة الخطار والجار- الثنين اعزاز وآنه اشلون بيّه!!)

كتب ورقة، على عجل، وناولها لابن اخيه:

عزيزي فاضل- اقبل علينا حسن السيد علي الكربلائي- ربما لاتعرفه- انه صديقي، بعض الشيء، وتعودت ان ادفع له اكرامية سنوية، تعارفنا على تسميتها (خمس السيد) والمألوف ان يمضي في بيتي ليلتين او ثلاث..

كل ما ارجوه عدم المجاهرة بشيء من ذاك (الحچي الخبرك!! وانته موش غشيم دارس مدارس وتفتهم!)

استاء الكربلائي من وجود فاضل: ما جمعتني الصدفة بواحد من هؤلاء الافندية الا وتسبب لي في متاعب (الچلب والبزون) ولكن لا بأس فلأسبقه واغرقه..

توجه السيد حسن الكربلائي بلسان يقطر العسل، الى فاضل، متسائلا عن الصحة والاحوال والراحة والمزاج، داعيا له بالخير والبركة وطول

البقاء... ممتدحا هذه الصدفة الحسنة (ورب صدفة خير من ميعاد): كنت اسأل عنك باستمرار.. والاذن تعشق قبل العين احيانا . .

احترم فاضل وصية عمه، فبالغ في جدّه وتحفظه، حتى كف عن تشغيل الراديو (الا للاخبار وحدها، ومن اذاعة بغداد دون سواها).

فعقب خلف على ذلك:

– هم ردّينا على ايام التومين.. فكهّ.. فكهّ خلنا نشبع سوالف وغنا وغير وبعد..

وتساءل خلف دون مناسبة لم لا تعمد الحكومة لاذاعة (المقتل) يوم عاشوراء، من راديو بغداد، وبصوت روزخون جيد كصوت المرحوم سيد علي؟

فتوجب على السيد حسن ان يرد:

– ويرحم والديك..

واجاب فاضل بجد متصنع:

– انشا اللّه الحكومة ما تقصر عن واجبها.. ويجي يوم تسمع المقتل كلهّ من اذاعة بغداد..

تراءى لفاضل ان السيد الكربلائي لطيف، مستساغ المعشر، لاينقطع عن رواية الشعر ولا تفوته مناسبة للنكتة.. تتميز تعليقاته بالسخرية اللاذعة (الوقورة). فتحرر من بعض جدّه، وحاور السيد في شأن من شؤون الحياة.. فوجده يفكر بطريقة منطقية.

اقلع عن تحفظه، وكاد ان ينطلق على سجيته. حاور نفسه كالمعاتب: لقد ظلمت السيد اعتمادا على تحذيرات مبهمة.. اظنهم لايعرفون محاورة

امثاله، ويصنعون من الحبة قبة.. والا ما معنى هذا التحرج؟!

انحرف مسار الحديث، دون قصد سابق، عن الفقر والغنى، فعرض السيد وجهة نظره: ان الرزق من اللّه مطلقا، ابتداء بحبة القمح ترزقها النملة.. وانتهاء بمقاطعة بيت مهلهل.

ضحك فاضل وتعجل الاجابة: لو صح هذا لانتهينا بالضرورة الى التسليم بأن المومسات اللائي يستقبلن عددا اكبر من الزبائن، قد كتب لهن رزق اوفر من زميلاتهن اللواتي حرمن تلك الليلة من (الزوار)... وعلى اللصوص ينطبق نفس المثال..

استبد القلق بملا نعمة، وقال لنفسه: افلت الزمام وتحطم صمام الامان (وانلاصت والعباس ابو فاضل)

تمسك السيد الكربلائي بالحلقة الضعيفة، فتوجه للحاضرين محتكما: ايصح اقحام اسماء المومسات وقطاع الطرق واللصوص على اسم اللّه عزّ وجل؟

نفض الحاضرون اثوابهم وتداخلت اصواتهم:

(استغفر اللّه.. استغفر اللّه..)

ولما انبرى فاضل لتوضيح قصده، كان السيد قد كسب الجالسين لصفه - وتلك بغيته- ولتكن الحقيقة فيما بعد مجهولة او معلومة، ظالمة او مظلومة. فقد تعلم ولمس باليد من خلال تجاربه، ان قمة النجاح في النقاش كسب السامعين ساعة الجدل، وباية وسيلة، ولاعبرة في ان تكون الحقيقة من جنس الذكور او الاناث. ثم ماهي الحقيقة ؟ لقد ساءل السيد نفسه، اكثر من مرة، فلم يهتد الى جواب.

انتقد فاضل نفسه، فيما بعد: لا اصلح للمناقشة ابدا.. ولا اعرف ان لكل مقام مقالا- وما هو اهم من ذلك.. لا اتميز بسرعة البديهية- وذلك شرط ضروري للمناقش (الناجح)!

*  *  *

اسر فرهود لملا نعمة: ان الشيخ فالح بن سعدون متضايق من وجود الراديو في بيتك، لدرجة التصريح امام عدد كبير من حاشيته وبمحضر من حمزة:

- بعد . . وبعد . . گام ايشغل راديو للفلح حتى ايلعبهم على گصبه!.

واشار فرهود باصبعه الى الراديو، حين فرغ مذيع موسكو من حديث عن حياة الكولخوزيين، وقال:

- ما ينلام الشيخ، لو گال ايلعّب الفلح. اكو فلاح يسمع هيچ عيشه بالدنيا وما يصير بأثنى حال؟!

اجابه الملا: ستكون مهمته اصعب من مهمة (زميله) ابن الاقطاعي الذي رجع من اميريكا بلا شهادة بعد اثنى عشر عاما من الدراسة.. وتلقفت احدى الصحف البغدادية خبره.. فما كان منه الا الهرولة في شارع الرشيد، وشراء النسخ التي صادفته، وعاد الى الفندق يتبعه حمال بمئات الجرائد. وقال لصديقه:

- اشتريت كل الجرايد، حتى لاتوصل وحده للشاميه ويشوفها ابوي. عاد ولا حسبة ابن مهلهل.. لازم ايچسر كل راديوات العالم ويحرج كل الكتب ويهدم كل المدارس.. حتى لا توعى الوادم !

*  *  *

لم يجد الجالسون في ربعة الملا كلمة مناسبة تقلل من مخاوفه، على مصير ولدى اخيه. وكلهم عليم بما يحمل الشابان من افكار مناهضة للسلطة. وما داما يتدخلان بالسياسة، فانهما ولا شك في قلب المعمعة.. وسمعوا استنتاجات ملا نعمة، وهو اكثرهم دراية بالسياسة: (اليوم بغداد تغلي مثل جدر الماشوّه) ولو كان الامر خلاف ذلك لما تسلم الجيش زمام السلطة.

وحالما اذيع بيان يطمئن الشعب الى هدوء الحالة واستتباب الامن، التفت خلف الى الملا وقال:

– خوش. خوش.. يا نعمتك ياربي– مادام بيان الحكومة ايگول ماكو شيء، بعد لايضيج خلگك.

اجابه الملا متبسطا:

– شوف عمي. ابو حمزة..

– ولا تشوف ردا..

– اگك حچايه وخلها ترچيّه بأذنك..

– فوت سالم..

– لو ذاعت الحكومة بيان وگالت الوضع مستقر. گول ترا الحسبه مخيوطه بكراع مطي.. وصايره هيونطه.. ولو گالت الحگومه : قلاقل وخبصات وكذا ماكذا.. اعرف ترا الامور ساكنة وتنسمع بيها رنّة الشامي.

– كون حچي الحكومة مثل حچي الجماعه؟!

– اخس وانگس!

صمت خلف قليلا ثم تساءل بلهجة المتردد:

- عمي ولو انته مالك خلگك- ارد انشدك..

- تفضل ابو حمزة

- زاد فضلك. گلي، هالوادم اللي اتهوّس ابغداد شتريد؟

- الوادم تريد عدالة. وهاي الحكومة ظالمة.. ولها السبب اتصير الهوسه..

- ارد انشدك.. لا تزعل مني.. همه ياهم ذوله اليطالبون بالعدالة؟

- آنه وانته وحمزة وسويلم وكزار...

- ابگع عبا؟! ابگع عبا ما يسوي شيء.. هاي ينراد الها صماخات..

كتم انزعاجه من رد خلف وقال بهدوء لا يناسب الاجابة:

- الصماخات ليش تتحرك وتهوس؟! راضيه بالوضع.. وامورها ماشيه على اربعه وعشرين حباية.. اليهوسون اولاد الخايبه.. الماچلين حرها وبردها..

لايدري احد بماذا فكر خلف، وكيف تداعت افكاره حين تساءل :

- فالح بن سعدون عد اهله يو ابغداد؟

اجابه ولده فرهود، معابثا:

- بويه انته موش غشيم. چا هالطلايب والحرايب المعتلجه.. والحكومات مخبوصة ليش؟ غير ابن مهلهل ابغداد وخابصها خبص!

ثم اتبع ذلك بترديدة معروفة، بدت في غير موضعها، بالنسبة لملا نعمه في الاقل:

گح دحلوس وبغداد ارتج

اشهد باللّه مازليّتي!

اذاع راديو بغداد نص الارادة الملكية بتأليف وزارة يرأسها الفريق نور الدين محمود رئيس اركان الجيش. فأعلن ملا نعمة حال سماعه النبأ، انه قرر السفر الى بغداد ليطمئن على ولدي اخيه..

* * *

تهامس الفلاحون، اثناء غياب الملا، بخبر مريب مفاده، ان شخصا غريبا حملته سيارة الشيخ الصغير، ضاري بن فالح، في عتمة المساء، وانزلته بربعة عبيد المنتاز، سركال قرية مويلحة، واكد عبيد نفسه، فيما بعد، ان الرجل الملثم هو معاون الشعبة الخاصة، في لواء الكوت، جاء يتحقق بنفسه من صحة التقارير السرية المرفوعة عن المنطقة.. واشار المنتاز، من طرف خفي الى تدخل ملا نعمة بالسياسة.

واتبع تلميحاته بعبارة ذات مغزى:

– حكومة. هجم بيتها، ما يخفى عليها شي، تعرف حتى الينام وي مرته!!

وروى فلاح من قرية مويلحه: لقد اثار فضولي مجيء الرجل، على ذلك النحو المريب.. فهو لم يدخل ربعة عبيد الا بعد ان اخرجنا منها. وحين تسللت من بيتي، حاولت ان اتبين وجهه على ضوء الفانوس، ولكنني دهشت حين وقفت بمواجهة باب الربعة ووجدتها مظلمة وظللت اتابع المسألة، اترصد الداخل والخارج، فعجبت لمغادرة الرجل بصحبة عبيد، بعد تناولهما العشاء.. وكانت وجهتهما نهر البترا.. ولم يعودا الى الربعة الا بعد ساعة او تزيد.

لم يكن تصريح عبيد، وكشفه لهوية معاون الشعبة الخاصة، من قبيل الثرثرة الفلاحية، بل كان تدبيرا محكما من داود ابو البينه، وتلقين الشيخ الصغير..

فلقد ازعجت الشيخ الكبير فالح بن سعدون (قلاقل) بغداد و (خبصاتها) فتعكر مزاجه، وقرر العودة في وقت غير متوقع، ولم يبلغ اهله تلفونيا بمقدمه، الا بعد وصوله مدينة الكوت، واستراحته في محل الچلبي..

وساعتها استبدت الحيرة بولده (ضاري) وتبخرت نشوة ليلة ونهار امضاها مع (سعوده). واخيرا اهتدى الى نفس الطريقة، التي ابتكرها داود، واوصل بها سعوده الى القصر. رواها داود بنفسه لعبيد المنتاز حين رافق معاون الشعبة الخاصة، ليوصله الى قرية مويلحة:

(اراد ضاري ان آتيه بسعوده، ليلة امس، حاولت اقناعه بصعوبة الطلب، نظرا الى ان سيارة الجب لا تحجب امرأة بصورة كاملة، وحتى اذا تجاوزنا هذه الصعوبة، فأن نزول امرأة من السيارة في باب القصر ودخولها لابد ان يثير القيل والقال وللشيخ الكبير عيون وارصاد.. ولكن (ضاري) اصر وعاند عناد السكران.. فأهتديت اخيرا الى فكرة اخذ (قاط كامل من القندره للعگال) من ملابس (ضاري) والبستها لسعوده فبدت كأنها شيخ المشايخ (شوفة عينك!) ولم يثر دخولها القصر اية شبهة، ولا يشك من رآها في ان زائرا صديقا من اولاد الشيوخ الكبار قد حل ضيفا عزيزا في قصر ابن مهلهل. ولكن (ضاري) لم يكتف منها بليلة واحدة.. اراد بقاءها ليلة اخرى.. وقبل ساعة فوجئنا بمكالمة الشيخ التلفونية..

خشينا ارجاعها الى المدينة، فقد نلتقي مع الشيخ على الطريق و (تعال يا عبيد شيّلني!!) ولهذا قرر ضاري تشريفها لربعتك العامرة تحت اسم معاون الشعبة الخاصة، ريثما تتاح لنا فرصة اعادتها بسلام..)

لحظتها تحلب ريق عبيد، تلمض، وبلع ريقه، وقد تمطى بداخله عفريت الولاء للدولة ممثلة بمعاون الشعبة الخاصة، وانتظر بفارغ الصبر نضج الدجاجة التي جاء بها، عصر ذلك اليوم، مريض شفي ببركة سيد سراب، فنذرها للقيّم (عبيد المنتاز) ومعها نصف دينار . وحالما تناول (المعاون) عشاءه، تعجل عبيد المنتاز مغادرته الربعة ليثبت اخلاصه للدولة والملك، فانسحبا الى جدول البترا متلاصقين.

* * *

اخذ بعض الفلاحين على انفسهم ابلاغ ملا نعمة بهذا الخبر المريب، وتفاصيله الغريبة، حال وصوله قرية العلوه، ليتدرع بالحيطة والحذر: فالذي تدبره الشعبة الخاصة لابد ان يكون موجها ضده.. ومن يدري، فلربما نصب المعاون جهازا سريا للالتقاط، والا فما معنى تجوله في ظلمة الليل؟

لم تقف تحذيرات الناصحين حائلا بين ملا نعمة وبين روايته لما سمع ورأى في بغداد: في اليوم التالي لاعلان حكومة نور الدين محمود عن تسعير الفواكه والمخضرات وردت برقية الى مجلس الوزراء موقعة بأسم عمال مدينة النجف جاء فيها: (فخامة رئيس الوزراء. تسعيركم الشلغم اثلج صدورنا سيروا الى الامام ونحن من ورائكم).

لم يجد الفلاحون في البرقية شيئا يستحق الاهتمام، وعجبوا لماذا يرويها الملا؟!

لاحظ اهمالهم للنكتة فروى غيرها.

– نكاية بالاقطاعيين الذين يسارعون لارسال برقيات التأييد، عمد اهالي بغداد الى اطلاق مجموعة حمير في الاسواق، جللوها بقماش ابيض كتبت عليه العبارة المألوفة في راديو بغداد:

(انا وعشائري نؤيدكم سيروا الى الامام واللّه ينصركم).

ضحك الفلاحون ملء افواههم. ما لبث بعضهم ان كفكف اطراف ضحكته، مستشعرا الخطر.. نادما على الضحك، لهذه النكتة بالذات، فهي ليست سياسية وحسب، بل شتيمة مقذعة للشيوخ– والحكومة على حد تعبير عبيد المنتاز (تعرف حتى الينام وي مرته!)

كفرّ حمزة الخلف عن ضحكته، بنصيحة لملا نعمة: ان يكف عن التدخل بالسياسة فليس وراءها غير وجع الرأس. وقال حمزة لنفسه: لئن بلغت الشيوخ ضحكتي سوف تبلغهم نصيحتي ولن تتأثر فكرة تنصيبي سركالا بسوء.

وقال فلاح ينصح الملا باخلاص:

– كون اتريد تسمع اذاعة موسكو، فك الراديون نص الليل. ولا تخلي حسّه يطلع ورا البيت – گص راس موّت خبر!!

ضحك ملا نعمة وقال:

– واحد نشدوه ليش راسك امشيب؟ گالهم من السباع. گالوله وين شفت السباع؟ گالهم واللّه ما شايف اسباع لكن اسمعهم ايسولفون عليها بالگهاوي!!

ثم تساءل بلهجة تأنيب: اي صنف من الرجال نحن؟! لمجرد نزول

شخص غريب في احدى القرى يراد منا عدم سماع الاخبار من الراديو.. في حين ان الشباب هناك، في بغداد، يقتحمون الرصاص...

وروى لهم هجوم المتظاهرين على مراكز الشرطة ومركز الاستعلامات الامريكي.. وبعض حوادث قدّر وقوعها تقديرا، مع قليل من المبالغة. فأدار حمزة الخلف كفه في الهواء وقال:

– هاي وين وذيچ وين؟!

ثم التفت، كأنما يبحث عن ابيه واضاف:

– لو الشايب اهناه، وسامع هاي سوالفك، چان گال: بعد شيبي.. يوهيچ.. يو متنراد الزلم . وچان هوّس لك هوسته الماينساها:

كل حي بالدنيا اعليه موته!

# الفصل السابع

لوّح ملا نعمة بذراعه، وادارها مع الافق، لتبلغ اشارته كل الفلاحين المتحلقين حوله، وقال بصوت جهوري:

- سامع الصوت عليكم. اليوفي ديونه ويطلب سنده. صدك عايل على الشيوخ؟!

واعلن ملا علي كاتب الشيوخ، وسط حلقة من الفلاحين و (الشحاني والواميرـ) المتجمهرين حوله: ان هذه بادرة خطرة.. وهي تعني من بين ما تعنيه نزع الثقة من بيت مهلهل. وأومأ بأصبعه نحو الفلاحين، الذين طالب الملا باسترداد (سنداتهم):

- تشكوّن بالشيوخ؟ ما تصدجون بالوصولات النكتبها الكم؟ اتخافون من بيت مهلهل يستبطلون ويشتكون بالاسناد مرة ثانية؟!!.

تصدى له ملا نعمة موضحا: اذا كان كل واحد منهم مدين بأربعين دينارا، فأنا اعتبر نفسي مدينا بمائة وعشرين لانني سركالهم، ولانني وقعتّ (السندات) كفيلا.. وكل كلام معهم لا معنى له. انا الطرف الاول في هذه المسألة.

ثم حاول ملا نعمة تلطيف لهجته واضاف:

..الامر لايحتاج تعقيدا وتخريجات عن الثقة وانتزاعها.. انهم مدينون للشيوخ، يريدون تسديد ما عليهم ويطلبون الاوراق التي وقعّوا عليها. اما الوصل الذي توقعه انت فأظنه يتطلب صيانة في مكان امين لا تطاله عاديات الزمن . . والفلاح لا يملك ( قاصة ) يحفظ بها الوصولات..

حرّك كاتب الشيوخ يده استغرابا وسخرا ثم قال:

- اشلون نگدر نشتغل بعد !! اذا يحچي بالقاصات؟!

كان هذا كافيا لاستفزاز ملا نعمة، واخراجه عن الهدوء الذي التزم به. صرخ بوجه الكاتب، وقد اتسعت عيناه:

- ليش ما احچي بالقاصات؟! چنت راعي بغنم ابوك؟! لا اتوازيني واحچي الموزينات!

قدّر كاتب الشيوخ ان الاخذ والرد على هذا المستوى ليس لمصلحته، وقد يجر الى عواقب وخيمة. فهو وان استمد قوته من قوة الشيوخ، لكنه لا ينتسب الى العشيرة، وملا نعمة بين اخوانه وابناء عمومته: وقد يجيء العقل بعد العواطف.. وتجيء الفكرة بعد السكرة!

استدار على عقبيه، وانصرف الى كوخ (الشحاني) في طرف (المحله) الغربي..

ردد الفلاحون بعد انصرافه:

- بعد حلگي حلگك يا ملا نعمه

- واللّه يحچي ذهب..

- والحگ وي ملا نعمة..

- سكتّه.. نعل والديه

قال احد الفلاحين الثلاثة مستغيثا:

- وتالي؟ ياجماعة انظل محبوسين؟ بيش يطلبونّا.. انريد انوفيهم وانشيل.. انولي.. انولي!

اندفع ملا نعمة نحو صريفة الشحاني، مشيرا الى الفلاحين الثلاثة ان يتبعوه..

تبعه حمزة الخلف مسرعا فأدركه قبل وصوله الصريفة. وهمس له بضع

كلمات على عجل سمع الفلاحون طرفا منها:

لا اتخليّ الزعل يغلبك.

دخل الملا صريفة الشحاني، وخاطب كاتب الشيوخ بلهجة هادئة:

- القضية ما تحتاج انطولها وانعرضها.. اترجاك اتفضها.. وتخليهم ايشيلون.

- آنه اعتبر هالقضية، قضية شرف، معناها انتم ما تصدگون بكلام شرف ايگولونه الشيوخ..

- كلام شرف؟! الحسبة حسبة سند، بيه طابع، وماضي عليه الفلاح وآنه الكفيل، كلام الشرف التگول عليه وين طابعه.. ووين حبره؟!

تغامز الفلاحون المحيطون بالصريفة. مد احدهم اصبعه ودغدغ صاحبه. غمز آخر بحاجبه. اخرج ثالث لسانه.. دار في اذهانهم ان ملا نعمة يعرض بشرف الكاتب.. ويشير الى العلاقة المفضوحة بين زوجته وبين الشيخ فالح بن سعدون . اصطنعوا نشوة انتصار موهومة على كاتب الشيوخ المقوت، الذي ركب بغلة العناد، واعلن ان (حواصل) هؤلاء الفلاحين لن تجري قسمتها، حتى يعود الشيخ من اوربا، بسبب من ان السندات التي يطلبونها في خزانة لا يملك مفتاحها الا الشيخ نفسه.

جاهر ملا نعمه بقرار خطير: سوف اقسم (حاصلاتهم) بنفسي. وابيع حصتهم من الحبوب، لاودع المائة والعشرين دينارا عند احد (وليكن حمزة الخلف) يدفعها للشيخ، حين رجوعه، ويتسلم السندات.

اجاب كاتب الشيوخ بتهور: ان الذي يتجاسر، ويعبث باموال بيت مهلهل، لم تلده امه بعد!

انتفض ملا نعمة، كأن جمرة سقطت بين ثوبه وثديه، وقال:

- هسه رايح اجسم الطعام، واشوف ياهو اليمنعني؟! انچان بالكوه والمجاوير انعل والديه.. وانچان بالحكومة مستعد امشي للمحكمة...

تزاحم الفلاحون، دونما قصد محدد، يقتفون خطى الملا السريعة..

شق حمزة الخلف طريقا بينهم. حاذى ملا نعمه واسر اليه بضع كلمات. التفت بعدها الى الفلاحين واعلن انه استمهل الملا لبعض الوقت، ريثما يجد حلا معقولا للازمة.

ثم اعتلى فرسه، واطلق لها العنان، ووجهته قصر الشيوخ.

لم يطل الانتظار بالفلاحين . شاهدوا جدارا من التراب يرتفع ويستطيل بدايته في قرية الشيوخ وتقترب نهايته من (المحلة).

انجلى اخيرا عن سيارة الشيخ الصغير (ضاري)..

فأتسعت حوله الحلقة، لحظة نزوله من السيارة، وراح يصغي بأنتباه لاقوال ملا نعمة ولما سكت الملا، التفت (ضاري) الى الكاتب وقال بلهجة امر:

- شكو بيها؟ روح جيب سنداتهم.

بوغت كاتب الشيوخ بالطلب.

فتردد في الاجابة لحظات.. حتى اذا التقت عيناه بعيني ضاري غمزه بعين واحدة واجاب:

- السندات اكثرها بالقاصة الچبيرة.. ومفتاحها عد الشيخ.. السندات موش كلها عندي..

شعر ضاري بحراجة موقفه امام الفلاحين فقد افلتت منه عبارة

(الامر).. وها هو يتلقى غمزة الكاتب ويزعم ان اكثر السندات في القاصة الكبيرة . . ووراء الغمزة ما وراءها . . والاعتذار يخفي شيئا ما . ولابد من حركة تحفظ (ماء الوجه).

اشار الى الكاتب ان يصعد معه السيارة معلنا للفلاحين:

- اروح ادور السندات بنفسي..

وحين انفرد الكاتب بالشيخ انهال عليه بملامة، هي بالتقريع اشبه، واختتمها بنصيحة وتحذير:

- لو انطيناهم سنداتهم ينفتح علينا باب ما ينسد.. ابوك ما يرضى اطيّ سند لكل فلاح يوفي..

- بس هالمرّة.. سوها على احسابي..

انحرفت السيارة الى بيت ملا علي، كاتب الشيوخ . وقفت عند باب الحوش الموارب . لمح الشيخ الصغير (زينة) بنت ملا علي وهي تعدو مسرعة لتختفي وراء الباب، وقد ابرز الثوب الشاف مفاتن جسمها، الذي اوشك على النضج.

فأستاء ضاري من غفلته، وعاتب نفسه: كيف اهملتها من قبل ولم اتبين فتنتها.. وما اكثر رواحها ومجيئها للقصر.. انها استحقت اسم (زينة) بجدارة..

اقترح الكاتب على الشيخ الصغير تأجيل تسليم السندات الى الغد، لاظهار الصعوبة امام الفلاحين الذين قد يطالبون مستقبلا بسنداتهم عند تسديد الديون. فوافقه ضاري دون مناقشة.

*  *  *

يئس الفلاحون من عودة الشيخ وكاتبه الى المحلة. تأكدوا من ضياع يوم جديد. بعضهم لم يلامس الماء جسده منذ اسابيع وبعضهم لم يلتق بزوجته طيلة ايام الذراوه..

كان هذا اول موسم يفرض فيه الشيوخ نظام قسمة المحّلة في يوم واحد.. وبمقتضى التعليمات لابد ان ينتهى دراس كل البيادر وتذرية كل الحبوب، ويوارى التبن بالتراب. ثم تجري القسمة..

شاء بعض الفلاحين ان يحول النقمة ضد ملا نعمة حين اعلن:

- شنهي الغبضناها من ورا غوانين ملا نعمة؟ ضاع علينا يوم جديد..

فصادف كلامه منبتا خصبا عند فلاح آخر، اجاب بسخرية اكثر:

- ملا نعمه حسباله العرك بالبطيخ!!

- عمي هذولة بيت مهلهل صاروا مثل الصخرة، ان طحت فوگها تنچسر وان طاحت فوگك تكسرك.

- تعاركن الحصن من فگر السايس!

- كل البلاوي من الملالي!

* * *

عبّر الفلاحون، الذين اموّا ربعة الملا، لشرب قهوة العصر، عن مخاوفهم على مصيره، بسبب موقفه المتصلب ازاء الشيوخ، وغمزه لكاتبهم بعبارات مبطنة:

- يا ملا نعمه ابو المثل يگول ايد الما تشابچها بوسها!

- يا ملا. هذولة بيت مهلهل صار حيلهم من حيل الحكومة..

- يا ملا ما ينرادلك اتوجف الشفرة وياهم!!

حرك ملا نعمة رأسه، وانشب ضرسا في شفته السفلى . ثم التفت الى الناصحين، وتساءل بجرس حزين:

- احنا هم زلم؟!

صمت لحظة.. واضاف:

- ينراد نتلمس ارواحنا!!

بدا تساؤله غريبا. والكلمة تستمد اهميتها، احيانا، من اهمية قائلها.. وملا نعمة في نظرهم لا يلقي الكلام جزافا، وقد ورث الحكمة عن ابيه.. وتعلم مالم يعرفه ابوه: القراءة والكتابة والكلام في السياسة. والاصغاء الى الراديو.

وهاهو ملا نعمة يشكك في رجولتهم، ويمتحنهم ساخرا: فليتحسس كل نفسه ان كان له ما للرجال.. سؤال غريب حقا.. انكروه على الملا، لكن احدا لم يجاهر بما دار في خلده .

فعاجلهم ملا نعمه باستخراج مظروف، من جيبه، وخاطبهم فيما كان يسوي طيات الرسالة بعناية:

السجناء السياسيون، في سجن الكوت، لم يحتملوا هضم حق من حقوقهم . . وانكروا على الادارة تصرفاتها.. عبروا عن ارادتهم، وهم عزل من كل سلاح، الا من رجولتهم، وتصرفوا كما يتصرف الرجال.

اما نحن هنا . اذا ما طالب المدين بالسند الذي وقع عليه، بعد تسديد الدين، اعتبرتم المطالبة تطرفا، وانهالت نصائحكم تطلب الاعتدال (وايد الماتشابچها بوسها!) هل نحن حقا رجال؟!

ثم انصرف الى رسالة صديقه، المعلم مهدي:

- وصلتني البارحة.. هاي الرسالة من صديق كلش ثقة اقراها الكم، كلها، بلكي تتحرك يا صخر!!

**(الكوت في ٤ ايلول ١٩٥٣)**

**تجاوز التحية التقليدية وبعض عبارات خاصة . وشرع يتلو بصوت واضح: (مذبحة سجن بغداد التي استشهد فيها الحاج بشير وموسى سلمان واحمد حسون واصيب بها مائة وخمسون سجينا بجراح، استفزت مشاعر السجناء السياسيين في الكوت، فأعلنوا اضرابا رمزيا وقدموا احتجاجا الى السلطة، بواسطة متصرف الكوت، يستنكرون فيه مذبحة سجن بغداد، ويطالبون بمعاقبة مدبريها ومنفذيها. غضبت الحكومة من هذا الاحتجاج واعتبرته تحديا لها، وتصرفا يستوجب العقاب. فقررت نقل بعضهم الى سجن نقرة السلمان، وراحت تستفز الباقين وتضيّق عليهم الحصار وشدد المشرفون على السجن ارهابهم. ثم اشاعوا في مدينة الكوت ان السجناء عصوا سجانيهم، وخرجوا على اوامر السجن، واعلنوا التمرد على الحكومة.**

**لكن المواطنين الشرفاء في مدينة الكوت فضحوا هذه الاكذوبة، حين قاموا بتظاهرة كبيرة، وارغموا متصرف الكوت على زيارة السجن. وذهب المتصرف ولكن ليعلن على السجناء : ان المجلس العرفي ببغداد يطلب احضار (١١٨) سجينا منهم للمحاكمة، وكان الغرض الحقيقي من وراء هذا الطلب، اخراج السجناء من سجن الكوت وارسالهم الى نقرة السلمان..**

فلم يوافق السجناء على مغادرة السجن.

وكان جواب الحكومة تشديد الحصار على السجناء. وكسر خزان المياه الخارجي.. ثم امتنعت ادارة السجن عن تقديم الطعام المخصص للسجناء.

استمر الحصار شهرا ويومين عاش السجناء خلاله على الطعام، الذي كان يصل من ذويهم قبل بدء الحصار. اما مشكلة الماء فقد حلوها بحفر بئر داخل السجن، بالادوات البسيطة التي بين ايديهم.

حاولت الشرطة ان تمنعهم.. هددتهم بالقتل، ان هم واصلوا الحفر . ولكنهم استمروا تحت وطأة العطش حتى بلغ عمق البئر اربعة امتار، ونبع ماؤه، فأستقوا منه وان يكن شديد الملوحة.

اسقط في يد السلطة . فقررت الشروع بخطة: بدأت بشتم مقذع، ارسل عبر مكبرات الصوت، ثم بعثت ادارة السجن بعض الجواسيس لاستفزاز السجناء.

استغاث السجناء من هذه المعاملة. ونظرا لوقوع السجن وسط مدينة الكوت، كانت استغاثتهم تسمع بوضوح. فألتجات الحكومة الى خطة معاكسة وذلك بتكليف افراد الشرطة بأن يمسك كل منهم صحيفة تنك فارغة ويقرع عليها باستمرار، لتحول دون وصول استغاثة السجناء الى مسامع اهالي مدينة الكوت. ثم ضاقت ادارة السجن بهذا الحال فأمرت بتوجيه الرصاص من بروج المراقبة وسطوح السجن، فقتل من قتل واصيب آخرون بجراح

خطيرة. كان ذلك قبل نصف شهر تقريبا.

لم تجد الحكومة جريمتها هذه كافية، فطلبت القيام بحملة تفتيشية، وبعد ممانعة ومفاوضة، اعلن السجناء موافقتهم على التفتيش. فبدأ من قبل مدير السجن، وبأشراف وتوجيه المدير العام لادارة السجون، وبعد هذا التفتيش المرهق، وتجريد السجناء من كل حاجة نافعة، اخرج المدير ثلاثة من المسجونين العاديين، وطلب اخراج خمسة عشر سجينا سياسيا لنقلهم الى نقرة السلمان، بيد ان المساجين السياسيين امتنعوا عن مغادرة السجن. فهيأت الحكومة حوالي مائة شرطي، كانوا يقفون في الجهة الشمالية من ساحة السجن يحملون البنادق والرشاشات وعددا من حاملي (الدونكيات).. وفي الساعة الرابعة من صباح امس انهمر الرصاص المجنون بخسة وغدر.. واسفرت المذبحة عن سقوط ثمانية شهداء ومائة وثلاثة جرحى من السجناء السياسيين(١)

---

١- عن قرار محكمة تمييز العراق المستند على وثائق التحقيق والتقارير الطبية في حينها . عند نظر المحكمة في تمييز الدعوى التي اقامها صادق الدجيلي والد الشهيد رؤوف الذي كان من بين ضحايا مجزرة سجن الكوت.

وكانت محكمة البداءة قد حكمت لوالد الشهيد بتعويض عن الضرر الذي اصابه من مقتل ولده، مع تحميل وزراء المالية والداخلية والشؤون الاجتماعية مصاريف الدعوى.

انهى الملا تلاوة الرسالة..

اعادها الى المظروف. ظل الصمت مخيما على الديوان، قطعه صوت خلف وهو يتذكر شيئا بعيدا استحضره من زوايا الذاكرة وقال:

- ايباه!! هذولة السولف عليهم عبيد، گبل سبع طعش سنه. عفيه زلم.. لهسه ما فضت اطلابتهم وي مدير السجن؟ گال عليهم عبيد: عصوا وما اشتغلوا بالتراب. ايباه اشلون اطلابه.. اشطولها.. اشعرضها؟ سبع طعش سنة وما فضت!! لاكن يا جماعة.. گال عليهم عبيد

چانوا ثلاثة.. هسة صايرين بالميّات.. ايباه!! بلابوش دنيا..

قال فلاح يعقب على الرسالة:

- يا ملا هذا المذكور بالمكتوب صعب علينا.

هوّس فرهود الخلف، دون تعليق:

- اخذيني ابسدّج يا خاله!

ادرك حمزة ما عناه فرهود بالهوسة وقال:

- عمي هذولاك امفتشين.. ويدرون شيريدون ومتعمدين الخطر.. واللي يتعمد الخطر ايگل خوفه.. احنا ناس امغمضين.. ونگولها من صدگك.. اخذيني ابسدّج يا خاله.

عجب الحاضرون لانطلاق كزار الصگر وقوله بحماس:

- عمي صدگ مثل ما تفضل الملا.. احنا خنّكر لا نثيه ولا ذكر..

لو بينا خير چان حچينا بيوم اخذوا گاعنا.. احنا اخذوا ديمتنا واطوها لنسيبهم صلال.. وذاك (رحمة روحه!) بهاي اذني سمعته وجدام هذا خلف.. گال كلام شرف گاعكم الكم.. قابل اطي گاعكم للغريب؟! وخلف

غشمره بزناد واخذ ديمته وظلينا ساچتين مثل عيون الخزر.. صدگك احنا موش زلم! احنا خنّكر!

لم يكن مبعث العجب قول كزار بل لان كزار نفسه يبادر للكلام دون سؤال، وهو الذي يقول عنه حمزة (حچي كزار بالتموين تطيّه بطاغه يطيك چلمه!)

واقتحم ذهن الملا دون بحث أو تدبير قول الجواهري:

**انا حتفهم الح البيوت عليهم**

**اغري الوليد بشتمهم والحاجبا**

وساءل نفسه:

ها هم يشتمون- ثم ماذا؟ يشتمون حيث لاتبلغ الشتيمة مسامع المشتوم. كواهلهم تنوء بحمل ثقيل من المذلة والخوف. كف قوية.. اين الكف القوية تسقط هذا الحمل الرهيب. اما من كف تسقطه..؟ ومتى يسقط؟ قالوا اسقطنا عرش فاروق هل سقط الحمل عنهم؟ اريد ان ارى بعيني- اريدها كفّا تسقط عرش مهلهل وعرش فيصل- اليس بينهم من يحمل في جوانحه مثل هذا الحقد؟. ولكن يا (هريب) ما هي حكاية صاحبك الجندرمة؟. كان يحب الدجاج واللبن بشراهه عجيبة- تذبح له الدجاجة وتملأ طاسة وثانية وثالثة باللبن (يجازيك يا هريّب) وحيثما كانت مأموريته يعرج على بيت هريّب يأكل الدجاجة ويشرب طاسات اللبن (يجازيك يا هريّب.. صاحبي انته يا هريب) وكانت مأموريته التالية جلب هريّب على عجل- لوح بالقرباچ- اچراك- حسبها مزحة ولكنها مزحة سمجة- اچراك- صرخ هريب.. وتسارعت ضربات القرباچ حتى سلخ ظهر هريب. اوصله الى

(القلغ).. خرج من التهمة بريئا. كان ثمة خطأ.. ثمة تشابه في الاسماء. جاء الجندرمة وعلى وجهه امارات حزن وندم (هرّيب لا يلومني جندرمة عقله بلابچينه) لم يفهم هريب معنى لاعتذار صاحبه ولا قوله عقله بلابچينه . كيف يكون عقل المرء في حذائه؟!

. هريب لا يلومني- جندرمه عقله بلابچينه.. يسمع طقطقه يصير قاز ماز.. يسمع جزجزجز يسلطن!

اسمع هريب انته لو يلبس لابچين طق طق ينتفخ طق طق يلزم قرباچ طق طق يضرب صديقك.. يضرب اخوك. جندرمة عقله بلابچينه.

اراد التكفير عن خطيئته وضع المسألة على هذا النحو: اخذ هذا لابچين مالي زايد حتى يجرب حتى لا يلومني.

كان الناس هنا في الريف حفاة اذكر ذلك جيدا في قرية تعداد بيوتها مائة بيت ربما لا يوجد اكثر من حذائين. حتى سعدون بن مهلهل كان يستعير حذاء والدي- يوم سافر الى بغداد استعار كلاش احميد ابو البينه..

وفي صبيحة يوم ممطر دخل الربعة هرّيب ينتعل لابچين صاحبه الجندرمة. اثار انتباه الحاضرين. كثرت تعليقاتهم: هاي شنهي؟ چنك حصان شارد بحديده.. چنك دجاجه امكلشه بالطين.. اشصار بيك لابس هالهوله. تجرأ احدهم وقال: چنك حضريّه لابسه غبغاب. استشاط هرّيب غضبا. امسك عصاه. وقبل ان يشج بها رأس ابن عمه. تذكر:(.. هرّيب انته لو يلبس لابچين يصير مثل جندرمه عقله بلابچينه طق طق ينتفخ طق طق طق يلزم قرباچ طق طق يضرب صديقه يضرب أخوه).

# الفصل الخامس

بالغ فرهود في وصفه للمظاهرة:

- اولها يم دكان يونس، وتاليها بسوگ السراريج..

فاستبد الفضول بخلف وسأل ولده:

- شيريدون؟

- نوري سعيد امسوّي حلف وي تركيا وباكستان وايران...

- وي الترك؟

- ايه وي الترك..

هتف خلف بسرور مفاجئ:

- ويردّون الترك؟! الف الواه على حكم العصملي..!

سأل حمزة معابثا:

- امواعدينك لو ردّوا ايعينونك غمندار؟!

قال الاب مستخفا بسخرية ولده، زاهدا في اجابته:

- ينراد الها بخت لو ردّوا الترك.. چان خرّبوا كل ترتيبات الانگريز..

قال حمزة كأنه يخاطب نفسه:

- يا ترتيبات! يا صخام! يا الطام! احنا وي العرب ما شبعانين خبز.. وي الترك انشاء اللّه نشبع كليجه!

حرك خلف رأسه، وقال بلهجة من يضمر اكثر مما يظهر:

انته بعدك غشيم، ما تعرف الامور!

ابتسم حمزة واجاب متهكما:

- تمام! على ما عدّيت. آنه موش مثلك منطلع بالسياسة! هاي شغلك،

گاضي بيها عمر!

تجاوز خلف تعليقات حمزة، وتوجه الى فرهود يأمره:

- اريدكم انوب تطلعون لي اداعة الترك..

سأله حمزة متصنعا الجد:

- نطلعها الك وهي تذيع بالتركي؟

رد الاب بنتر:

- لا تصير سفيه! الترك لازم عدهم اداعة تحچي بالعربي، مادام لنده تحچي بالعربي. الانگريز والترك اگران، ما يصير واحد يزود على الآخر.

اجاب فرهود بأشفاق:

- ميخالف بويه ميخالف . اندور لك اداعة الترك، ولو ما لگيناها ننشد ملا نعمه عليها..

شرع حمزة يكلم نفسه بصوت مسموع :

- دشوفوا فگر حمزة!! انوب گلبت الحسبه على الترك. صاروا محبوبين انشا اللّه! ما عوّلنا نخلص من محبته لبيت مهلهل (الذهب التيزاب) طحنا بالترك!

التفت خلف ناحية حمزة وسأله:

- ولك شتگول؟

- هيچ منطرف الترك..

وردد هوسة، لا تمت بصلة للمناسبة، بل لمجرد انها تحوي اسم الترك:

تبنيه ونهدمه بتركينا!

*  *  *

تطلع خلف جهة الغرب، فقدّر ان بين الشمس ومغربها مثل الذي بينه وبين مقام سيد سراب، فشجّع نفسه على التجوال: في الوقت متسع لمشوار لابد منه. هذه المرة تبدو قاب قوسين او ادنى (اجتّك يا خلف اتخط برسنها) ليست كأحلام اليقظة التي شغلتني قبل اعوام..

توشك الريح ان تهب (ترس الشراع) ما معنى التحالف مع الترك؟ التحالف مع الترك يعني..؟ يعني.. التحالف مع الترك! ولن يغفروا للانگليز ما فعلوا بهم.. بهذلوهم .. جعلوهم مضغة في الافواه ومضربا للامثال.. (چنهم طابور ترك شارد)، اللّه يرحمك يا حسين (اتراك أسرى امشگگه يا خاتها) وها قد حان الانتقام من الانگليز وكل ما هو انگليزي- ايه يا خلف (الماله اول ماله تالي) هاتوا مستنداتكم التركية.. عفارم عفارم! هنيئا لمن احتفظ بقصاصة ورق ممهورة من الترك.

لحسن الحظ.. احتفظت بكل اوراق ضرائب الديمة.

يحلو للسفيه حمزة قوله (موصهن واشرب ما يهن.. حتى اتروح منك دوخة الراس!) غشيم!! انظر هذه فائدة الاوراق التي احتفظت بها عشرات السنين. ولا اشك في اعتذاره وقوله: (يا بويه اشمدريني يفتر دولاب الفلك.. ويردّون الترك ؟!)

يا حضرة القومنسار.. القومندير القولچي اغاسي- هذه مستنداتي ممهورة بمهر (الصندوق اميني) ايام حكمكم العادل.. لكن الانگليز تواطأوا مع ابن مهلهل.. وهو انگليزي ابن انگليزي حتى الجد الثامن.. اما صلال الخبيث فهو انگليزي ابن انگليزي حتى الجد السابع عشر. ولو لم يكن

الامر كذلك لما منحهما الانگليزي مضخة لكل واحد منهما.. وكانت المضخة يومها بجناح نسر.. ميخالف ميخالف شيخ خلف. لا. حجي خلف. ولا حجي. ميخالف خلف. عفارم عفارم. عنفصلري.. اخذ ديمه مال انته هبسوير..

ديمتي بكل حدودها.. لقد مددوها. وكأنها (دالوچه) عجين بيد خبّازة ماهرة.. وسعوها الشياطين.. نصّبوا حمزة سركالا على نصفها الغربي وصار نصفها الشرقي يتبع سركلة ملا نعمة الشيء الردئ في هذه العملية انهم رحّلوا الملا الى طرف العلوة الشرقي وحرموني من شرب القهوة. اللّه يرحمك يا حسين. لن انسى ذلك اليوم وقد اجهدنا البحث عن فرس اشنين المسروقة.. واذكر اننا كنا بالقرب من الصويرة.. ولم نجد احدا في البيت.. قدم لنا الصبي طبقا يحوي خبزا وانائين في احدهما دبس وفي الآخر سمسم مقشور. تغامزنا لاندري كيف نغمس. اشار الى الصبي ان يقترب.. اجبره على مشاركتنا. ثلم الصبي لقمة وضعها في الدبس ثم قلبها على السمسم. اللّه يرحمك يا حسين لن انسى قوله للصبي:

– گوم گوم تعلمنا اشلون انغمس.. وهكذا فعلوا مع الحاج محمد. ترسخت اقدامهم وعرفوا السبيل فجاءوا بالچلبي وطردوا الحجي بلابوش حجّاج!

وماذا يهمك يا چلبي؟ اسمع يا چلبي. كنت شريكا لبيت مهلهل. منك المضخات ومنهم الارض– كنا نصيح ايام الطفولة: (ابو الدواب منك الحليب ومني الخبز) اسمع يا چلبي عادت لي ارضي.. ولا يهمك. ان كانت رقبتها مملوكة لفالح بن سعدون او خلف.. وانت يا ملا نعمه يا سركال المشروع

الجديد.. تبقى مكانك فقد اصبح المشروع ضمن ديمتي.. خذ ٢٠٪ سركله بدلا من عشرة.. انك تستحق اكثر من هذا. يا ريحة حسين. خذ (نص ملاچه) بلابوش سيارات.. ولابد ان تكون بلون سيارة ابن مهلهل ويقودها حمزة. لا. فرهود. لا حمزة. وعلي نذر ان تكون اول سفرة الى النجف وهي بجانبي: (ديري بالچ على فراش السيارة.. مرحوم والدچ چان ما شبعان من رچب المطايا..) وواحد مثل لوريهم الذي نقل الطعام وقال العنبري:(مال الگوم يترابد.. چنه احوار طارحينه للچوي!) وتساءل الفلاحون ان كانت (الكفه) تعطى لخليفه العنبري، فلأن طعام الشيوخ تنقله الابل.. اما وقد نقل الشيوخ حصتهم باللوري.. فلماذا يأخذون گفّة (العنبريه)؟ وقال الشيطان ملا علي:( ياهي مالتكم؟! جان ياخذها العنبري هسه ننطيها للفيترچي!)

لن آخذ من الفلاحين اية (كفّه) ولا رسوم ٥٪ . . ولابد من واحدة مثل التي استأجرها الچلبي لشق جدول مضخات العلوة.

وقال عنها سويلم الصگر : ( مال البلابوش! كل لگمه تعادل ميتين شلةً مسحاه).

يقول السفيه موصهن واشرب مايهن!!

ويومها اقول له بلهجة أمر حازمة: تعال يا سفيه يا حمزة.. ما الذي تفيده من (النهوه)؟ اسمع كلامي.. وكف عن النهوه.. ياله من اجر عظيم عند اللّه، اطلق سراحها من سجن النهوه.. كنت اعرف مقاصدك يا حمزة.. انت طامع بالميراث حين يموت جوده وليس له وارث غير سكونة.. انت طامع في وسخ الدنيا. تف على وصخ الدنيا..

وتعال يا فرهود خذني لـ (جماعتك) الذين تتحدث عنهم: اهلا وسهلا ابو

فـرهـود (دويـات اشكـال وارنـاگ.. مـواچيل اشكـال وارنـاگ.. گول اشيوجعك؟).

اشـويه ظهـري.. ورجليّ تـوجعني.. ونـومي بـالليل مـوش راحه.. وصـار شوفي مـوش مثل الاول.. ومن فضلك يا دختور تعـال اشاورك- حـتى لا يسمعنا هذا الشيطان فرهود- ها ها ها.. ميخالف ميخالف بسيطه!!

قبلّ حائط سيد سراب مرتين وخاطبه:

الآن حل الـوفاء بـالنذر.. اصبحت في وضـع يمكنني من بنـاء مقـامك.. سأبني لك قبة مثل قبة ابو الرايات.

تساءل خلف، بعد العشاء:

- لگيتوا اداعة الترك؟

اجابه حمزة:

- لگينا اذاعة محيرجه!!

*  *  *

قال فاضل لعمه، بمزاج رائق: اريد تقريرا شاملا عما جرى وما هو جار وما سيجري الى يوم يبعثون!

لقد مـر وقت طويل لم نلتق فيه. وبالمناسبة، صرت اشتـاق لرؤياك، وتلك حقيقة مرة، واذا جازت لي المبالغة فهي كارثة وطنية، وقد تصبح قومية! ويا للهول اذا تحولت الى كارثة انسانية..!!

شرع الملا يحدثه، بعد انخفاض موجة الضحك:

مع وصول اخبار المتظاهرين، الذين رشقوا سيارة عدنان مندرس بالبيض الفاسد والقاذورات، اثناء زيارته لبغداد، حدثت مظاهرة في الحي. وحوصرت سيارة الاقطاعي.. فتقدمت نحوها احدى المتظاهرات، وجللت الشيخ وسيارته بطبق رماد...

- جيد جدا..

ومع اذاعة نبأ كسر مصر لاحتكار السلاح، قرر اهالي الحي كسر احتكار التراب.. فشكلوا وفدا يحمل عريضة جماهيرية..

- بلا جماهيرية.. ارجوك !

عريضة وحسب، يطالبون المسؤولين بهدم السور، الذي يفصل المدينة عن اراضي الاقطاعي، ويحول بينهم وبين اخذ التراب لاغراض البناء..

- جيد ونص جدا..!

واكتشف الاطباء، ان شيخنا فالح بن سعدون مصاب بمرض القلب..

- اكتشاف خطير! كنت احسب ان القفص الصدري وتجويف البطن في اجسام هؤلاء تملأهما المعدة وحدها!

وبناء على نصح الاطباء، اكتفى الشيخ بممارسة مهامه الوطنية، كنائب في مجلس الامة، وترك امور المزرعة لولده (ضاري) وقد استهل نشاطه، وحقق اول انتصارته بترحيلي من تلك الدار، جوار بيت خلف، ثم صار يحرض الشرطة ضدي، ويتكرم من آن لآخر، فيرفع تقريرا شفويا لمعاون الشرطة عن نشاطي السياسي..

- بداية تبشر بالخير!!

وكان على ملا نعمة، ان يجعل باكورة نشاط ضاري، اول انتصارته- لو

يعلم- انتصاره الخاطف على (زينة) بنت كاتب الشيوخ.. حين دفعتها شقيقته، بتدبير محكم، لحمل طبق (المزّه) الى غرفته، وقد تصنّع وعكه خفيفة، منعته من مغادرة غرفة النوم.

ادركت زينة بعد فوات الاوان، واحكام الباب بقفله، انها وقعت في المصيدة . صحيح انها كانت تبادله النظرات الشرهة خلسة، لكن الاصح منه طموحها لجعل الزواج نهاية لتلك الرغبة، فكانت حذرة، تفر من حبائله، تغالب عواطفها للظفر بما هو ابقى. والآن (طاح الفاس بالراس) فقد ارتعدت مبدأ الامر.. جلست في مواجهته على كرسي وثير.. وبدافع تأجيل وقوع الزلزال رضيت بذلك الكأس المليء بالسائل الاشقر، عله يمنع حدوث الزلزال. شربت في ثوان ما ينبغي شربه خلال ساعة. تهاوت بين يديه. نزعت قناع الزيف، فبدت محُبة ولهانة، اكثر مما هو. هدهدها بوعود خلاّبة فسلمته الشيء الذي حلمت بتسليمه ليلة (الزفه) مع زغاريد (الحبايب والگرايب) ودوي اطلاق الرصاص وقرع ((الدنابك)).

اما جدك خلف فقد استقطب آماله واحلامه حلف بغداد: كاد يطير فرحا يوم علمه بتحالف نوري السعيد مع (الترك) على اساس ان الترك- اذا ما رجعوا لحكم العراق- يلغون جميع التشريعات التي اصدرها الانگليز واعوانهم، وتبعا لذلك تعود له (الديمة) التي اغتصبها ابن مهلهل (الذهب التيزاب!). ضحك فاضل بشدة، وخبّط على ركبته، ثم هتف بطريقته المعهودة، حين يصفو مزاجه:

- مدهش. رائع. مزعج رائق. بديع شنيع. مذيع رقيع....

واتبع ذلك بصيحة موجهة الى زوجة عمه:

– الغدا. الغدا. بالعجل الغدا، حتى امشي لبيت خلف.. احچي له عن الترك.. واعلمه اشچم حچايه تركيه!!

التفت الى عمه وتساءل: وماذا بعد هذا يا خليفة المسلمين؟ اتحفنا بما عندك..

اجابه الملا: هذه اهم الاحداث التي جرت وتجري اليوم...

اقام فاضل ظهره، ورفع رأسه بميل، ثم تساءل: اذا كنت تسمي هذه احداثا، فما هو الاسم المناسب الذي تختاره لانعقاد مؤتمر باندونغ وتأميم قناة السويس واعدام آل روزنبرغ بالولايات المتحدة الامريكية، واسقاط الجنسية عن توفيق منير وكامل قزانچي، وارتفاع سمعة جيش التحرير الجزائري.. وهجوم الانصار على قاعدة ديان بيانفو.. ونشوء جمهورية فيتنام الديمقراطية، بقيادة هوشي منه– وما اروعها انشودة شعبية نرددها ساعة صفو المزاج وتبادل الانخاب..

ونقر فاضل بأصابعه على علبة السكاير، ثم نغّم الانشودة:

**انچان اتريد عيشة فرطنه**
**وشكّه سعيّه ومرننه**
**اتحزّم مثل هوشي منه**
**واطرد حرامي بيتك**

رفع كفيه عن علبة السكاير وخبط على صدره، مرددا المقطع الاخير، على ايقاع (لطمية) نسوية مألوفة (واطرد حرامي بيتك.. واطرد حرامي بيتك)

ضحك الملا مبتهجا، ثم اخرج قلما وورقة، وراح يكتب الانشودة..

قال فاضل بعد ان فرغ الملا: قطعت عليّ سلسلة (سرد) احداث العالم، وما كان ينبغي (حدوث) هذا الامر.. ولكن لابأس، اضف الى ما سبق حدثين هامين، الاول، كتابتي لقصة قصيرة جدا.. ورائعة جدا، عنوانها، حامل اختام الملكة.. ونظمي لقصيدة ليست طويلة جدا ولا قصيرة جدا ولكنها فاخرة جدا جدا!! اما الحدث الثاني فهو انتساب (الاخ) كامل للحزب الشيوعي العراقي، ومذ تسلم اشعار القبول في الحزب، صار يخاطبني وكأنه يكبرني بواحد وخمسين عاما ونصف! بلابوش دنيا!!

بوغت ملا نعمة بهذا التصريح، وقاطعه متسائلا: وماذا تكون انت؟ حسبتك عضوا في الحزب منذ سنوات.. اما الآن فقد تكشفت عن شيء آخر، غريب الى حد ما، تبدو وكأنك تسخر من كامل..؟

اجاب فاضل مبتسما: لا تدفع الامور الى حافة الهاوية، ولا تقصر الالوان في العالم الى (ابيض صاجل واسود حنچوچي!) وهما ليسا بلونين، على اية حال!، حذار من التسرع واطلاق التسميات الجاهزة. كل ما في الامر انني لا اطيق التنظيم الحزبي. ولكي اعفيك وتعفيني من (السين والجيم) انا اكره كل قيد يحد من حريتي، وباختصار، وهذا من اجل راحتك، كي لا يرهقك التفكير، وتتعبك التخريجات، انا اقبل من الشيوعية كل شيء.. الا الضبط الفولاذي والدسبلن!)...

انصرف الملا الى نفسه: يقول انه حر، لقد صدق المرحوم في قوله.. ومن واتته البراعة أوهم الناس بأنه كان مهاجما وليس هاربا.. ما عقدّ الدنيا الا الكذب. انه حر!. هل حقا هو حر يا ايها الحر الرياحي؟ انت وحدك الحر،

وقد انطبق الاسم على المسمى، وفي لحظة الاختيار كنت حرا فآثرت الموت مع الحسين وتركت جيش يزيد. وهذه هي الحرية الحقيقية.. يا ايها الحر. اين حريتك المزعومة؟. شرب كأسه وانتشى واعجبه ان يحاكي احد الوعاظ الذي يذيع احاديثه من راديو بغداد. فتصدى له متدين متعصب وادمى وجهه. وسمع الملك يقول: شعبي العزيز فأختار ان (يعفط) للملك.. وكان ثمن العفطة ثلاثة ايام في التوقيف وشفاعة من صديقه المقاول عند صديق متنفذ... ويقول انه حر...

سحب الشرطي ربطة عنقه الحمراء: يا احمر!! وقاده الى المركز ومع ذلك فهو حر.. ما عقدّ الدنيا الا الكذب.. ومن واتته البراعة. بأي جانب من جوانب هذه الحرية تتمسك يا سيد حر؟! قالوا انه لا يقتني الا الحمام الابيض. لابد انه من انصار السلام. وذبحوا حمامات السيد الحر!

بدأ فاضل يتلاعب بالالفاظ، ويعبث بمخارج الحروف، بطريقة كاريكاتورية، ليغير وجهة الحديث، بعيدا عن الجد. قال كلمات غريبة، اكثرها غير مفهوم.. ثم توقف فجأة وتسائل:

ماذا اردت ان اقول؟ اردت ان اقول: وبأعتباري فنانا، فالحرية للفنان- حتى فنان (اللنگات) كالماء للسمكة. وفي رواية اخرى، كالماء (للشبوط). ويذهب بعضهم الى ان الصحيح كالشبوط في الماء!! ويقال والعهدة على من قال وتقوّل كالشبوط في النهر او النهر يضم شبوطا . و (الاخ) كامل يصوغها على هذا النحو: المناضل الثوري والجماهير كالسمكة والماء، لايمكنه ان يعيش ويعمل خارج صفوف الجماهير.. بلابوش دنيا!

قهقه عاليا وقرّب كفيه من وجهه بموازاة انفه وصفق مرددا!

- هيا الى خلف..
الى خلف بالتركي..
يحيا خلف بالتركي..
يسقط خلف بالتركي!!

تهـامس خـدم القصـر وحـراسه، وقـد تـزاحمـوا خلف البـاب المـوارب، ورؤسـهم مثل عنقود عنب تفرط اكثره:

– هكذا؟ كلما استبد به الطرب فعل مثل هذا؟..

– ابدا.

– ويخالف نـصح الاطباء.. ألم يحرموا عليه الافراط في الشرب والاجهاد العضلي؟

– انظر. الا يفوقها في تحريك الردفين وارتجافة السرة؟

– هذا مع كاولية مبتذلة فما الذي يفعله مع بنات الهوى في بغداد؟.

– طيلة خدمتي في القصر لم اره هكذا ولا مرة واحدة.

– ينطبق عليه المأثور (مثل الگطينه كلما تكبر اتخف)

* * *

– اس.. ولك!

– حگ وياه.. لـو آنـه بمچانه هم چان ركصـت وي المنعولـة الوالـدين الحلوه..

– ولك انته ياهو وتحط روحك وي الاوادم.

– عدّوا الولايات وعدوا خرنابات!

– مثل الخنفسانه جابو الخيل ينعلونها مدت رجلها..

– اشمالك مثل ام حذّوني؟!

اطبق الشيخ فالح بن سعدون السبابتين وحركهما

– اسمع واللّه ايدگ اصبع حسبالك مطر اللوز!

– اس!

هتف الشيخ.. متقطع الانفاس:

- ولك داود اترس لي بيك.

خلص نفسه من مخاصرتها. وقف عنها مبعدة ذراعين هز جذعه على ايقاع سريع. تعمد قارع الدنبك ان يطيله. افرغ الكأس في جوفه دفعة واحدة:

- انوب، انوب، بيك..

* * *

- لبيك عبدك بين اديك

- اس. استخفر اللّه.

- متديّن..

- ابن النعال صاير متديّن..

- ترا اروح اكل للشيخ امتيه القصر.. وجاعد يتنوّع للكاوليه

- خايب اكل تبن.. چا اشعليه القصر.. اشحدّه اليتجاسر ويوصل للسور.

- چا ليش يطوّنك معاش، وامعينينك حارس؟

- ما يفتهمون!! مثلك..

- اس. كلشي ولا هذا الشغا!

كان ضاري يتخذ غرفة المطعم مجلسا له، يشرب بهدوء، خلافا لوالده، الذي اجهد نفسه في الرقص وافرط في الشرب.

صاح الشيخ:

- ولك داود شوف لي لندن.. شوف لي الاخبار شوف اخبار لنده.

*  *  *

- هز لندن ضاري وبچاها..

- اللّه يرحمك يا حسين..

- اشنفعه فهمه وشعره؟

- اشلون خايب!؟

- حتى ماراح الشيخ لفاتحته..

- طاح حظك.. چا هاي بيها عيب عليه؟

- چا اشلون؟

- ولك.. الحسين ذاك ابن رسول اللّه ظل مطروح مدري اشچم يوم محد غسلّه.. كون هم بيها عيب على الحسين..

- استخفر اللّه. استخفر اللّه- هاي وين ذيچ وين!

- خايب موش اگلك انته سليت.. ما عرفت مگصدي..

*  *  *

دخل داود يحمل كأسا واوجز تقريره:

- محفوظ اتگول لنده بعد شي قليل وتسقط مصر!

صفق الشيخ فالح، امال جذعه جانبا. اشار للكاولية ان تفعل مثله ردد بأيقاع، ذكرّ المتلصصين بصوت المضخة العتيقة:

- هچع هچع. طاح ووگع. مال الوجع هچع.. الگاع. الگاع!

*  *  *

- انا اخوك.. گامت تعلس بجلالها المهلوبه!

- اس!

- خوش عرب!
- ياهي مالتك؟
- طلع صهيوني اصلي..
- إكل تبن..
- تاكل تبن انته وابوك!
- ترا اصيح امتيه القصر وجاعد اهناه..
- هيه شنهي كشمره؟ طيحان حظ!

*  *  *

اردف داود ليمزج الفرحة بدعابة:

- وتاليها ايصير حكم عبد الناصر مثل شيخة امعيجل.. يوم وضحويه!

ضحك الشيخ حتى اختل توازنه. ارتمى على الكرسي. احتقنت شرايين رقبته، ثم طلب اعادة النكتة.

*  *  *

- عوينت ابيّك ذاك ابو المطايا
- لا يسمعنا احد..
- متن معيجن!! ابن السليت..
- اس!

ابو اللگم.. ابو الـ.. اللّه ينعل الشيطان.

*  *  *

استراح عازف الربابه. وضعها قارع الدنبك جانبا..

صاح عازف الرباب:

- العطش العطش..

صاح الشيخ فالح:

- ويسكي.. جبا على احساب عبد الناصر.

شربوا كؤوسهم دفعة واحدة.

*  *  *

- لا يا مناعيل والدين..

- هذوله اشعليهم

- بهيچ ليله..

- خايب لا اتساوج.. همّه اشعليهم.. إن شركّت وان غربّت.. عسى تغرگ عسى تحترج.. ايريدون يگضون ليلتهم ويمشون..

- ما تحچي على شيخك الطلع صهيوني

- لا تلوّص!

*  *  *

كان مقدرا لجوق الكاولية ان يحيي الليلة حفلة عرس. لكن الشيخ اجبر داود على ان يأتيه بكاولية من السماء اذا تعذر وجودها على الارض: انها ليلة ولا كل الليالي.. ازف موعد سحق الجمهورية المصرية. اقتحمتها قوات بريطانيا وفرنسا واسرائيل: في الحق لم اكن اعرف خطرها الى هذا الحد. لكن الباشا وهو العالم العليم لخص القضية بعبارة واحدة (الباب اليجيك منه ريح سدّه واستريح).

امر الشيخ بمعاودة الرقص- قال لعازف الربابة:

- الليلة راوينا شطارتك.. الليلة ليلة..

والتفت الى (الدنبكچي) وقال:

- ولك ما تدري الليلة اشلون ليلة.. شكو عندك شطاره اطلعها!

تحركت اصابع الكاولي بخفة ورشاقة، ليس لأنها (الليلة ليلة) ليلة قصف مدينة بورسعيد.

اصابعه اعتادت الحركة هكذا.. وغدت تداعب الآلة الموسيقية على نحو ميكانيكي.. كما تتحرك عضلات المعدة تمددا وانقباضا.. زوجته تخاصر الشيخ. يرتطم كرشه ببطنها.. يجهل اين تكون بورسعيد ولماذا تضرب.. يضمها الشيخ بقوة.. اوشك ان يسبب لها ارتباكا في انتظام الخطوات.. لا شهادة مولد ولا جواز سفر في جيبه. دغدغت الشيخ تحت ابطه.. نظر الى زوجته دون اثر للغيرة في عينيه.. ادرك عازف الربابة غمزة صاحبه. فهمت زوجته ماذا اراد بطرفة العين..

* * *

- يا منعول والدين كون احط اصابعك بين الهاون وايده..

- خايب هذولة ياهي مالتهم..

تراخت عضلات الشيخ . لم يعد بوسعه الرقص وقوفا- جلس مكتفيا بهز الكتفين.

همس ضاري ثانية بأذن داود:

- خايب ما اتدير له حتى يسكر وينام.. الليلة اتخبّل اذا ما الگفها هالمنعولة الوالدين.

* * *

اثرت في اهل العلوة كآبة ملا نعمة. شاركوه الاصغاء باهتمام لنشرات

الاخبار. لم يره سويلم الصگر باكيا هكذا: مرة واحدة فقط، يوم رجع من كركوك.. استقبله ابوه صارخا (وين ناصر ينعمه؟) اجهش بالبكاء دقائق معدودات، ثم تغلب على ضعفه.

قال كزار الصگر:

– يا ابو سعد.. لا تاذي روحك. اشصار بيك؟ بموتة مرحوم ناصر ما بچيت هيچ.. امّك وابوك ماتوا ما بچيت عليهم..

قال ملا نعمة بصوت متهدج:

– ناصر شخص واحد وانكتل بيومه، امي وابوي گضوا وطرهم بالدنيا وماتوا. لكن يا كزار هذا شعب كلهّ امعرض للموت.. تدري الليلة اشلون ليلة.. الرشاشات تحصد بشعب مصر ازغار اكبار.. مثل حصاد المناجل بالشعير. الهضم يا اكزار الهضم.. والشماته ما تنحمل.. اسمع اذاعة بغداد اشلون اتغني البوصطچيه!!

* * *

ارادها الشيخ فالح بن سعدون المهلهل افراحا مستمرة تتوج بحفل ضخم، اذا سقطت جمهورية مصر: بشارة يسيل لها اللعاب اذا جئتني بالخبر يا داود. كان الشيخ لا يطيق سماع نشرات الاخبار كاملة. رجع داود مقطب الحاجبين، تنضح الخيبة من زوايا شفتيه ومايلي الجفنين:

– هاولك؟

– انلاصت امحفوظ!

– اشلون ولك؟

– السوفيتي..

- اشبيه الچبيحي؟

- السوفيتي انذر. گال ترا اضرب لنده بالصواريخ يو تطلعون عن مصر!

- لا هلا ولا مرحبا.. حط روحه بالطلابه!

- حط روحه وانلاصت!

- انلاصت من صدگ.. وروح مهلهل!!

* * *

هرول فرحان بن سويلم الصگر ليبلغ دعوة عاجلة لآل خلف وحمود بن شنين. وتأكيد من ملا نعمة: ان يجلب حمود معه (الدنبك).

اشتهر حمود بميله لحضور مناسبات الفرح، ولا يتحّرج من اصطحاب دنبكه، ولحظة ينتشي حمود ويبلغ الفرح منه حدا معينا، يقف على رجل واحدة. يحصر الدنبك بين الركبة والساق من الرجل المرفوعة ويخبط عليها بسرعة عجيبه وايقاع يقول عنه خلف (ايكوّم المكسور) ويتحتم على الجالسين مراقبته، فقد يبلغ به الطرب الى الحد الذي يمسك الدنبك بيده ويهشمها على رأسه.

عجب حمزة من الدعوة المفاجئة، المقرونة بطلب الدنبك ودعوة مطشر بن حمزة.

قال فرهود لأخيه:

- يمكن عرفت سببها..

* * *

وجدوا الربعة تغص بالمدعوين. تدور فناجين القهوة بلا انقطاع. وقواري

الشاي لا ترفع عن الوجاغ، الا ليجدد تخدير الشاي.

علائم البشر تطفح على وجه ملا نعمة.. تحرر من وقاره المعهود، خلع العقال والشماغ .. عرفوا المناسبة. انها مناسبة اندحار العدوان الثلاثي بعد الانذار السوفيتي .. سأل الملا حمودا:

- تعرف دگّة صد وصحت ياستّار؟

حرك حمود رأسه ايجابا، فيما كان يرقّق الدنبك من وسطه بأصبع رطب .. نقر عليه . استعذب صوته . خبط بقوة .. استقام الايقاع.

طلب الملا ان يردد المدعوون لازمة (المربع).

- صد وصحت ياستار-

تناغم التصفيق مع الترديد مكملا ايقاع الدنبك. انشد ملا نعمة:

والمعتدي صار افرار  لمن سمع بيها انذار

صد وصحت ياستّار

اتقن الحاضرون ترديد المطلع الجديد. انتشى حمود بن شنين. وقف على رجل واحدة. اخذ الملا يتلو قصيدته الجديدة مستوحاة من الانذار السوفيتي. تلفت حمزة الى كل جانب. اطمأن تماما، ليس بين الحاضرين واش ولا نمام يسعى الى شيوخ . امسك عصاه من وسطها وخطر راقصاً وسط الديوان. ثم قال للملا:

- لو تدري الشايب اشگال..

واشار بأبهامه من وراء ظهره ناحية الشيوخ:

- لمن گالوله جايبين كاوليه.. فرحانين بضرب مصر.. حچى أشكال وارناگ.. من هذا اليعجبك!

*  *  *

ارغى الشيخ فالح بن سعدون وازبد . مهددا متوعدا ملا نعمة.. ذكّره ملا علي، كاتب الشيوخ، بوصايا الطبيب: لا يرهق اعصابه.. لا يتعب جسمه.. لا يشغل ذهنه:

- محفوظ لا اتخالف امر الطبيب.. وهاي الحسبة كلش بسيطة .. يتكلفها ضاري اللّه يحفظه.. كل المسؤولين باللوا وبالقضا جماعته.. هسه اتشوف اشلون ايأدبه وينتقم من جماعته.

*  *  *

وجد الملا ضرورة لأطلاع فاضل على ما يتعرض له من متاعب. فكانت سفرة كزار الى بغداد فرصة مواتية لتحميله الرسالة، مع التأكيد على سريتها.

استهل الرسالة بمقدمة شاملة.. اشار الى رد فعل خيبة الحكومة بعد فشل العدوان الثلاثي.. حتى هبّت (جماهير) الحي. اجتهد الملا في البحث عن عبارات بديلة عن (المد الجماهيري) و (المد الثوري): قال بلا جماهير، ومرة (دخيل اللّه ودخيلكم عبارات اخرى غيرهالكلايش) ما هو البديل الذي تقترحه؟ لست معنيا بالبحث عن بديل. يتعين عليكم ايجاد عبارات ارق!. نحن لا نجدها ثقيلة على الاسماع . اما انا احسها اثقل من جبل حمرين ! (ايطبّك مرض). (ايطبكم مرض!) وانت ممن تكون؟ منكم ولكن متحرر من الكلائش!

تعمد ملا نعمة ان لا يظهر في الاحداث، في رسالته وكأنه مؤرخ رصد الحوادث بعد خمسين عاما:

.... حتى هبت جماهير الحي تشارك الشعب مظاهراته واضراباته، وتتالت في الحي الاضرابات والمظاهرات والاجتماعات (الجماهيرية) وكانت الحكومة والاقطاعيون يتحينون الفرص لضرب المدينة والانتقام منها.

عمدت الحكومة الى خطف بعض الوطنيين واعتقال البعض الآخر عند سفرهم خارج المدينة. في ليلة ١٧- ١٢ جيء الى المدينة، تحت جنح الظلام بقوات اضافية، عندئذ انكشف للآهلين ان ثمة خطة لعدوان مدبر. وفي الساعة الواحدة بعد منتصف تلك الليلة بدأت السلطة تحرشاتها، فراحت تنتهك حرمات الدور، تعتقل وتعتدي على النساء والرجال. هاجمت احدى الدور مستعملة الرشاشات لفتح بابها، فاستيقظ سكان المحلة وذعر الاطفال...

اعلنت المدينة اضرابها مشاركة لأضراب البلاد العربية الاحتجاجي على محاكمة القادة الوطنيين من قبل حكومة نوري السعيد. ومنذ الفجر كانت قوات السلطة قد احتلت سوق المدينة ومناطقها الهامة وشرعت ترغم الاهالي على فتح حوانيتهم. ولكنها اخفقت فدفعها الحقد الى القيام بحملة اعتقالات جنونية مما ادى الى اعلان الاضراب ثانية احتجاجا على فظاظة الشرطة وارهابها وكثرة الاعتقالات.

استمرت السلطة في حملة الاعتقالات مستعملة الرشاشات والبنادق لارهاب (الجماهير).

وهاجمت احد المواطنين بالرصاص لاعتقاله فأضطر الى الدفاع عن نفسه ومساندته (الجماهير) وحدث اشتباك مع الشرطة دام ١٥ دقيقة. سقط احد الجرحى فهبت المدينة كلها تتظاهر واستمرت المظاهرات الى ما

بعد العشاء.. في تلك الليلة، وبعد محاولات الشرطة اقتحام المدينة، سهر الاهالي ونظموا فرقا للحراسة.

في صباح اليوم التالي طوقت المدينة قوات كبيرة معها ستة مدافع هاون وعشرات الرشاشات والسيارات المسلحة وسيارات الاسعاف. وشوهدت القوات تتدرب على كيفية الهجوم والتراجع والاختباء، واقامت بعض المتاريس في اماكن هامة.

حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحا ارسل ممثلو السلطة في طلب عدد من وجوه المدينة للمفاوضة معهم .. نحو العاشرة والربع عاد الوفد يحمل انذار الحكومة للمدينة: (بوجوب تسليم ٤٠ شخصا في موعد اقصاه الساعة الحادية عشرة قبل الظهر! وعدم التعرض للشرطة التي ستدخل الى السوق وترابط فيه وتعتقل من تريد. والا فان المتصرف سيضرب المدينة).

لم يعين المتصرف من هم الاربعون شخصا واكتفى بالقول (المدينة تعرفهم) .. وهكذا اتضحت خيوط المؤامرة.. ومع ذلك طلبت (الجماهير) ان يعود الوفد الى المتصرف ليستمهله حتى المساء او صباح اليوم التالي. ولكن قوات السلطة منعت الوفد. حاول الوفد ان يسلك طرقا اخرى فلم يفلح. كانت الشرطة تحتل مسالك المدينة .. اخيرا اعتقل اعضاء الوفد فتجلى بوضوح تام ما تريده حكومة نوري السعيد. وصح ما قيل عن وزير داخليته، (سعيد قزاز) انه جاهر امام عدد من مرؤوسيه (حي مالازم).

اندفعت (الجماهير) العزلاء، وعلى عجل تهيء بحماس وتصميم اسباب الدفاع عن نفسها .. وقالت سنجعل من الحي بور سعيد ثانية.

حوالي الظهر زحفت قوات السلطة من كل جانب لاحتلال المدينة وهي تطلق سيلا من النيران، انطلقت ثماني قذائف من المدافع.. بدأت المعركة. المقاومون يردون موجات الهجوم، الف وخمسمائة شرطي مهاجم.. كانت المدافع والرشاشات والبنادق تصب حممها حتى تهدمت عدة اركان من السوق.. طوال النهار والليل كانت المعارك مستمرة.. تزداد شدة وضراوة.. استعملت قوات السلطة في تلك الليلة القنابل المضيئة لكشف مراكز المقاومة ورميها بالمدافع والرشاشات.. تمكنت قوات السلطة بعد ذلك ان تحتل الدور واحدة بعد اخرى.. حتى احاطت بمناطق المقاومة وراحت تصليها بنار حامية.

في احدى مناطق المقاومة، مثلا، لم تبق سوى امرأة ابت الاستسلام للقوات المحاصرة. وكانت ترمي الشرطة بالطابوق.. اخيرا اصابتها صلية رشاش فسقطت مغشيا عليها في بركة من دماء .. وجرها الوحوش السعيديون جريحة الى الموقف دون تضميد.

قبيل الفجر وجد المقاومون انفسهم تحت سيل النيران مباشرة وامست ظروفهم صعبة للغاية.. بعد نفاد عتادهم..

ولم يتحرك جدك خلف فيوجه انذاره الى المعتدين بالخروج من مدينة الحي، كما فعل السوفيت.

وهكذا انتهت مقاومتهم البطولية.

انطلق الوحوش في المدينة يهوسون (كلنا لك سلّم صهيوني!!)

ويطلقون النيران في كل اتجاه، ويهاجمون البيوت ويعتقلون.. حتى بلغ عدد المعتقلين في تلك الايام اكثر من الف مواطن. كما راح الوحوش ينهبون

السوق. والبيوت والناس المعتقلين.. وفتشت الدور، بعضها فتش خمس مرات.. حفروا غرف المنازل هدموا السقوف نزحوا المراحيض والبالوعات، استعملوا جهازا خاصا للبحث عن مخازن الاسلحة والقنابل المزعومة.

اجهضت حوالي السبعين امرأة..

دخلت القوات على المواطن الجريح حميد فرحان هنون وكان مصابا بجراح قاتلة، فضربه معاون الشرطة وداس على رأسه بحذائه حتى لفظ انفاسه الاخيرة..

وطيلة ايام المقاومة.. وما بعدها، كان الاقطاعيون يقيمون الولائم ووزعوا الاف الدنانير على قادة وافراد القوة تشجيعا لهم على الفتك والنهب وابتهاجا بالنصر..

استمرت المدينة مضربة ثلاثة ايام بعد انتهاء المقاومة. فأنذرت الحكومة بحرق السوق اذا لم تفتح الدكاكين ابوابها.. وطالبت بتسليم الجرحى والمختفين، مهددة بان من يعثر في بيته على احد المختفين تحرق داره وتغتصب نساؤه.. وانذرت مئتين وخمسين عائلة من اكراد الحي بوجوب مغادرة البلاد خلال شهر ونصف وسفرت الى ايران احدى عشر عائلة.

كان عليّ ان اصف دعوة الشيخ ضاري لهيئة المجلس العرفي التي جاءت الى الكوت.. واصف رقص الكاوليات والسكر والعربدة. لكنني امتنع عن ذلك لجلال الموقف.

اصدر المجلس حكمه على ٢٢ مواطنا بالحبس الشديد لمدة مجموعها ٢٤٠ سنة ووزع ٢٠٠ سنة على ٦٠ مواطنا وظل العشرات رهن التوقيف.

وفي ٢٨-١٢-١٩٥٦ انتقل المجلس العرفي الى سجن الكوت. ودخل على

السجينين علي الشيخ حمود وعطا الدباس، اشخاص وجهوا اليهما بعض الاسئلة، دون ان يكشفوا هوياتهم.

وفي ٢٩-١٢ بلغ مأمور السجن، لاغيره، السجينين بالحكم عليهما بالاعدام.. حينذاك عرفا ان تلك الاسئلة التي وجهها المجهولون، كانت محاكمة!

واستمر حكام حلف بغداد يصبون على السجينين المقيدين المحكومين بالموت، كل ما تحمله قلوبهم من حقد وضغينة. وبلغ من فظاعة التعذيب الذي لقيه المناضل عطا مهدي الدباس انه لفظ انفاسه الاخيرة وهو في سيارة السجن، في الطريق الى ساحة الاعدام، فشنقوه ميتا.

اما المناضل الشهيد علي الشيخ حمود فقد نقل مع رفيقه يوم ١٠-١-٩٥٧ الى حيث نصبت المشنقة في ساحة (الصفاه) وسط الحي وتحت ظلال المشنقة راح ينشد:

**الشعب ما مات يوما وانه لن يموتا**
**ان فاته اليوم نصر ففي غد لن يفوتا**

وبعد ذلك النشيد اجال بصره في مدينته وخاطب اهلها (عشت ثوريا وبقيت ثوريا ولو عدت للحياة لما رضيت الا ان اكون ثوريا). ثم اشار الى المشنقة وقال (لئن تمكنوا من اجسادنا وشنقونا فهيهات ان يشنقوا الفكر الذي اعتنقناه..)

وقال مهوال في احدى المناسبات التي اعقبت اعدام الشهيد:

**احنا اولاد واسط ما نريد اشهود**
**تكول الناس عنّا لو حچينا ابزود**

من ينشكك لحدي انوب المبدأ هذا اتمسك بيه.

وانني خجل حتى من وصف جريمة الاقطاعيين:

لقد نبشوا قبر الشهيدين- كان مقام سعيد بن جبير قرب الحي، المحل المفضل للمهرجانات والاحتفالات.. ولذا اوصى الشهيد علي ان يدفن هو ورفيقه في ذلك المكان.. فلم يرع الاقطاعيون حرمة الاموات.

بعثوا زبانيتهم فنبشوا القبر واخرجوا الجثتين..

يا فاضل اني اعيش مع نباشي القبور... اتفهم هذا.. والخلاصة.. لقد استضفت ثلاثة من المختفين.. ويبدو أن كلاب الشيوخ، البوليسية، قد تشممت آثارهم واوصلت الخبر للشيخ ضاري، ولحسن حظي وحظ الجماعة ان الشيخ كلم مدير الشرطة حول المسألة في ساعة سكر وانشراح.. تسنى خلالها لاحد خدام القصر ان يسترق السمع ويبلغني في الوقت المناسب فنقلت الاصدقاء الى محل مأمون وابعدت بندقيتي، و (نظفت) البيت من الكتب ولم يطل الانتظار فقد شرّفوا، ولم يعثروا على شيء. لكنني مع ذلك (اكلت المقسوم) وامضيت اياما في التوقيف. ولم اغادره الا يوم امس الاول (والحچي بيناتنا) ابتعد عني معظم الفلاحين، وامتنعوا حتى عن شرب القهوة في ربعتي.. بلّغ (الاخ) كامل هذه الملاحظة (للمعلومات) فقط، وعطفا على حوارنا (اياه). اخيرا ادعو لي ربك بالفرج القريب، فدعوتك مستجابة ولاشك. (عمك عمك- حب لحيّة عمك).

* * *

بسم اللّه الرحمن الرحيم. من امير المؤمنين ابو الفضل مسلح الدين

الواسطي.

الى عامله على ولاية البترا وضيعة العلوة ودسكرة مويلحة وديمة خلف، ملا نعمة بن حسين المنتسب لعشائر السياح.

اما بعد. احمد اللّه على ان ولأنّي امرك واودع الامين سرك. لقد اجتمع مجلس الشورى المنعقد ليلة امس برئاستي وعضوية (الاخ) كامل، وأمة اللّه نعناعة بنت صگر التي هي في الوقت عينه ونفسه وذاته امي الحنون.

واستقر الرأي على الآتي: خلاصته، يدك في الكتاب ورجلك في الركاب. اما تفاصيله فهي:

(گلي يرحم اهلك انته گاطع مهر على البترا؟)) الا يسعك مكان غيرها؟

(ثانية وبعد- ولو انته ما دارس مدارس- لكن تفتهم، (منطرف الگمگم) قدم له الاعتذار. وخذ اجازة مرضية من دخان البعرور و (چانون المْآل).

ياسيدي (بغير تعلوم لك) تبيع الهوايش والطعامات. اما البندقية فأعرف مبلغ حبك لها، وكذلك فرسك (السبوگ) بوسعك ان تودعهما عند اخوالي بيت صگر. هذا كل ما في الامر. فلا تعقد المسألة.. (انعل ابو السركله لا ابو نص السراكيل حشاك) اقدم الينا يا ابن حسين، فأن الثمار قد اينعت، وقد امنت لك (عمل محترم) عند صديق (خوش ولد.. مثلك ولا ينوف عليك)، (هم وطنچي حيل حيل) اظنك تعرفه، هو صديقي المقاول شوكة بغدادي. اما نوع العمل فهو (تگدر اتسميه سركله، بس على عمال موعلى فلح) وعلى اية حال فالاخ كامل مؤمن بتحالف العمال والفلاحين. ولو انه اصيب بخيبة امل حين قرأ رسالتك، وملاحظتك الموجهة له!!

ليس ثمة ما يحملني على الاعتقاد بأنك تملك حجة واحدة للمماطلة في

الرحيل. ولمدة اسبوع واحد اذا لم تأت (بالحمل والزمل) نضطر كامل وانا للمجيء، وان كنا نفضل عدم المجيء في هذا الجو المسموم.

تحياتنا للجميع وفي الطليعة منهم الجد خلف (بلابوش دنيا..!).

فوجئ ملا نعمة بالعرض الذي يحمل كل اسباب قبوله. اضناه التفكير بما سيقال عنه: اوقف مرة واحدة فهرب. ترك اولئك الذين ورطهم:

اذهب انت وربك وقاتلا (حبلها وذبها الگيلاني) ويتطاوس القرد داود: (يابه شفت اشلون.. يعني احتلها لچنا قلعه.. قشمرهم) ويجيبه الذبابة القذرة: (معلوم راد يگضي شغل بروسهم) ولكن ايها البائع قلمه وعرضه من قال لك اني هارب؟ من قال اني رفعت الراية البيضاء؟ العراق كله ساحة نضال. (ها هاء ها.. يعني حبلها وذبها الگيلاني.. گل له للسفيه فرهود) ارادكم جسرا فلما اجتازته قافلته احرق الجسور. (ها يابه داود، الأخ راح يناضل ابغداد يضرب باميا) ولم لا اناضل؟ التحول من خندق الى خندق ليس هزيمة يا (ابو گرون).. (ها يابه.. عبيد.. الاخ سواها افلح من غبش.. قشمرهم ما اتگلله لعوده الكبر وحمود بن شنين) اعرف نفسك القصير يا عوده ولا استبعد ان تقولها. اذا هرب كل مناضل من موقعه عند اول زخة رصاص ستخلو المواقع حتما. لا تتعجل. فالعراق كله ساحة نضال. ولكن يتعين عليه الانتظار طويلا حتى يألف المكان ويعرف مشاكل الناس، وهذا تجميد لنشاطه وهذا ما يريده العدو. هذا حق. ولكن اليس وقوعه في اسر العدو سببا كافيا لتحوله من خندق لآخر؟ قد يصبح هذا مبررا لكل من تعرض لصعوبة.. وقد تكون سابقة. كل من واجه صعوبة قال ابعدوني عن موقعي كي لا اقع في الاسر. لكنني لم اطلب هذا. وما

الفرق؟ قبلت اول عرض للهزيمة. ليست هزيمة. هذا من وجهة نظرك. حسن فليكن. لست عدو نفسي- واثق من نفسي. لن ابحث عن ثغرة، لن اسلط الضوء على ما هو سلبي واتجاوز كل ما هو ايجابي. قالوا له تحذر ها هو الخنزير مقبل. اركض واجلب بندقيتك قال لهم لن اركض سيقول الخنزير هرب من طريقي. ولكنك يا صديق الخنزير تركض لكي تأتي بالبندقية وتجندل الخنزير. لست هاربا وليقولوا ما يقولون.

* * *

امر الشيخ ضاري، ان يبحث الكاتب جميع اوراق السلف الزراعية، عله يجد ورقة موقعة من ملا نعمة، ليحول دون رحيله بموجب قانون حقوق وواجبات الزراع. كان الشيخ عكر المزاج فقطع على نفسه عهدا امام جمع كبير من رواد القصر: (بشرفي ما اخليه ايشيل سلامات)..

اعتكف الكاتب يومين. لم يعثر على ورقة منسية. والى هذا كان يخالف الشيخ رأيه، راغبا في التخلص من ملا نعمة بأي ثمن: كيف السبيل الى اقناعك يا ضاري- يا من تحولت من حمل وديع الى خنزير برّي. قال السيد علي اللّه يرحمه: ان من بين اسباب تحريم لحم الخنزير على المسلم كونه يورث من يأكل لحمه بعض طباعه. وانه لولوع بأكل اللحوم المعلبة ويقال، ان اكثرها لحوم خنازير. واحسب انه يبحث عن ثغرة في اعمالي. صار يستمتع بأذلالي. اسكره الجاه المفاجيء والسلطان الذي وافاه قبل الاوان. ما الذي حل بقلبك يا فالح. ان لك جسم ثور كيف اهتدى الطبيب الى قلبك وقرر مرضه؟ مرض القلب في قلب طبيب القلب وهكذا سلمت (الخيط والعصفور لهذا الزعطوط) افسدوه. لقد افسدته الشرطة، من

مديرهم الى مفوضيهم. يطبطبون على أكتافه (ذبولة ارغيف وهز ذيلة) لمجرد شربة وسكي ورقصة كاوليات (عمه يعميكم). عن اي شرطة تتحدث ايها الملا العتيق. ألم تسجل بقلمك هذا العام وحده الف تغار حنطة والفى تغار شعير- وهذه الاسعار الخيالية. ولا حتى هذا ومازلت تتحدث بعقلية (ألف بي زبر أن.. بيش دو زبر أن) انتهى وقتك من انت اذا كان القائممقام نفسه يعرض نفسه للخدمة. يوم لم تطلق يد ضاري بعد. سافر فالح الى اوربا واعتمد القائممقام وكيلا على مزارعه.. فصار يتجول ليلا ويتجسس على الفلاحين مثل اي (شحنة لگام..) وجد فرس السيد عزوز ترعى في البيدر، فكسر الخيزرانه على ظهر السيد. وحين عاد الشيخ من اوربا اعجب بعمل القائممقام وسعى له عند وزير الداخلية فعينه متصرفا..

قال السيد عزوز: (ابيك وانا اخو سكنه... شاره نگديه حسباله اتفوت بچيسه.. عشره جدي) ولكن كيف يا سيد؟ اين موضع الشاره؟ لقد عين متصرفا وكان قائممقاما. (يابه دروحوا.. حسبالهم آنه غشيم.. چان قيممقام الحي يگرگك من كبر اليشان هسه صار متصرف ذايه مدري وين ماوين). هذه هي القضية يا ملاّ (دو زبر أن) .. اذا كان القائممقام يرضى ان يصبح وكيلا في مزارعهم فمن انت يا دوبيش اون؟ ياملا (لگن)! ويخيل الي ان عداوة ملا نعمة وكلماته المسمومة قد اثرت على مركزي- رغم كرهه الشديد لملا نعمة وافكاره- لكن كلمة العدو مجلجلة رنانة ان لم تقبلها شغلت بها وقد تجد لها منفذا في جدار التفكير وقد تسمم ينبوع القلب- الخلاص الخلاص من ملا نعمه ولكن من يقنع هذا الزعطوط الذي شاخ في ليلة وضحاها من يقنع الحصرم الذي تزبب فجأة؟ (ياميم لام بيش مل

لام الف لا) ومركزك على كف عفريت ولم تعثر على ورقة مما يريد ولو كان غير هذا الشيطان ملا نعمة لزورت عليه ورقة.

وكان علي ان لا اطمئن واجمع اكثر مما جمعت وقالوا عنهم بحق (صاحبهم مثل سايس السبع.. بس يخمل عنه يصطره) اريد البقاء سنتين.. ولو سنه واحدة لكي (اطلع القضى والمضى).

وجاء يقصر الخطو: سيثور ويعربد.. (حلفت بشرفي انعل ابو شرفكم.. آنه ما اعرفكم اشلون اشراف! ايباه.. عجنتكم على ايدي.. هم علي بابا زنگو) احتمله مهما قال ومهما فعل لابد لك من سنة اخرى ومع عدم وجود ملا نعمة تساوي عشر سنوات اعرف كيف اتصرف.

دوخته المفاجأة. الشيخ تلقى الخبر ببرود.

(ما لگيت سند).. (ما لازم) ليس هذا وحسب، فقد أضاف (دوختك.. اهوايه تعبتك). طمع في تسامح الشيخ: رأيي ان نتخلص من هذا المشاغب بسرعة. رد الشيخ يقول وبلهجة ودية:

(بكيفك) ماذا جرى لهذه الدنيا؟ لم يتركه الشيخ ضاري في تيه الحدس والتخمين. لكل شيء ثمنه- للشدة ثمنها وللتسامح ثمنه. بادره الشيخ يطلب يد ابنته (زينة) لخادمه داود. قطع من قبل عهدا لاخيه ان يزوجها لابنه: العهد وكل العهود بگشر بصل. ستبقى في مكانك، وبلا ملا نعمة في المنطقة.. لو اردت زينة وامها:

- امحفوظ احنا خدامك التريده ايصير..

عبر الشيخ عن امتنانه بأبتسامة. اردف الطلب بآخر:

ان يكون الزواج عاجلا، فللتأخير آفات، وثمة اسباب اخرى. اسرت اليه

زينة ليلة امس: تدابيرنا ليست محكمة.. لقد زرعت جنينا في احشائي.. تدبر امرك قبل وقوع الكارثة. هوّن عليها الامر:

– ولا ايهمج.. ضام لج رجل لگطه.. اسمك رجل يگعيم عن وحشة الليل.

وسوف نكون اكثر حرية بعد الزواج.. تقيمين هنا في القصر، زوجة لخادم الشيوخ داود ابو البينه.

تمدد داود على الارض وقبل حذاء الشيخ ومرغ به وجهه. لم يحلم بزينة ابدا ابدا: (التعب ما يضيع وياكم يا بيت مهلهل).

افهمه الشيخ ان تزويجه بمثابة (جبرة خاطر) له بعد وفاة المرحوم والده، سلمان ابو البينه، ولا داعي لانتظار اسابيع حتى ينتهي الحزن، فللتأخير آفات. غدا آخذكما معي الى بغداد.. تزوج في الكاظم، شأن كل من يريد الزواج بلا افراح.. لا تفكر بالبيت وشؤونه اتخذ لك غرفة في القصر (هاه؟ خوش؟!)

* * *

جلس الشيخ ضاري وراء عجلة القيادة وبجانبه داود. احتلت المقعد الخلفي زينة وامها. حالما انعطفت السيارة الى الطريق العام رفع غطاءها. لما تزل الشمس عاليه. بواكير الخريف لطفت الجو. يحلو له شرب البيرة المثلجة مع قيادة السيارة. باشر داود مهمته، يسقي الشيخ. سمح له ان يشرب هو الآخر. التفت الشيخ الى وراء، والكلام شركة بين العروس وامها:

– كل احنا بخدمة داود ما دامه عريّس!!

عاودته الرغبة للقيادة بسرعة، خفقت عباءة العروس، وعباءة الام صدر

عنهما صوت ذكر الشيخ بصوت الدربك يقرعه الكاولي بمهارة و (حمريه) مثل الغزال. نقر بأصابع كفه اليسرى على باب السيارة من الخارج اوشكت السيارة على الطيران. تكورت ام العروس مرعوبة في ركن المقعد الخلفي: يا حافظ يا حفيظ.. الحافظته امه.. حافظتها امها. الشبه كبير بينهما لا يخفى على اقل الناس ادراكا.. جاء على ابيه حين من الدهر جن بي.. لم ينقطع عنى حتى بعد ان حرمت زوجته دخولي الى الحوش. يا ساتر. وعلاقتهما تبدو واضحة اعرف هذا يا ساتر.. دشوفوا ابليس المنعول مالگى غيري يلعب عليّ.. كان لا يأتي الا وهو سكران هذا يعني.. (لا هذا حچي.. عفوك يا مانع الردى). المانع حديث الاستعمال.. يا مانع الردى يا اللّه- (المنعول ابليس مالگى غير هالساعه يلعب عليّ-..) الم يكن لي زوج؟ (بأذانا گطن. لا. زينة بت ابوها وچاد بت ابوها) بسم اللّه الرحمن الرحيم.... قال الشيخ لداود:

- مو ضروري اتسوي دخلتك باچر، سويها الليلة، شنهو الفرق بين الاربعاء والخميس؟

التفت الى وراء:

شتگولين ام حسن؟

- محفوظ بكيفك وصايفك..

اوقف السيارة جانبا وترجل، فتبعه داود. بال الشيخ واقفا- فعل داود مثله- تحاشت كلاهما النظر ناحية الرجلين. اشعلت الام سيكارة على عجل: اخفوا رأس الجاموسه بغطاء.. وبعد ذلك رمى الفحل نفسه في الشط ولم يظهر حين تكشف له فعله...

الدنيا لا تسير عبثا كيفما اتفق كل شيء بتدبير حاول الملعون ابليس ولكن تعسا له. اغتنمتها فرصة وحولت نظرها: ومع ذلك فلا زال هناك امل حين (ينصمط) ابوه. وما الفرق؟، سخافات.

عاود قيادة السيارة بسرعة. التفت الى داود يصل حكاية مقطوعة:

- بالعكس ابغداد قضيته اسهل..

- معلوم معلوم محفوظ.

توقفت السيارة عند بوابة القصر ترجل داود فقرع الجرس. هرول خادم القصر ناحية الشيخ تناول اطراف اصابعه وقبلها. امر الشيخ بأعداد مائدة فاخرة. التفت نصف التفاتة وقال:

- بعد شتريد ام حسن؟ ناخذها للكاظم اتزور.. وانشوف مومن يگطع المهر..

اوقف السيارة في الساحة المواجهة لباب الصحن ناحية القبلة، وقال لداود الذي انصرف لمساعدة ام العروس على الترجل:

- سووا زيارتكم خفيفة.. رحم اللّه من زار وخفف!

لمح كهلا يعتمر نصف عمامة، يحمل صرة تحت ابطه، في مشيته اقرب الى الهرولة. ولما حاذى السيارة سأله الشيخ ضاري ان كان بوسعه ان يجري عقدا سريعا لعروسين. اجاب الكهل الذي يعتمر نصف عمامه:

- لا عيني مو شغلتي..

لوح الشيخ ضاري بورقة من فئة خمسة دنانير وسأل:

- واذا بيها ابو الخمسة؟

توقف الكهل. دقق النظر جيدا: خمسة دنانير؟

الجهد لا يساوي خمسة فلوس (يا حجي شيطي) اتكون الورقة عملة مزيفة؟ ومع ذلك.. حتى لو كانت مزيفة فلست مغبونا:

- ميخالف شيخ بأمرك!

استمهل الرجل ريثما يتم العريس وعروسه فروض الزيارة. عجب الرجل الذي يعتمر نصف عمامة: ان تتم اجراءات عقد الزواج في السيارة وسط الشارع العام. على اية حال ذلك اسهل (وكفى اللّه المؤمنين الروحه والجيّه) ولن يأخذوا من وقتي سوى دقيقتين والجهد لا يساوي فلسين ولتكن الورقة مزيفة. لابد ان في الامر لعبة. ولتكن (نعلة ابو الجوك من تحت ليفوك) وهل يتعين علي اصلاح العالم ولم اصلح باب الدكان والبزازين داخلة خارجة. واذا كان في هذا الزواج لعبة (نعلة والديهم.. قابل احط الها ركعه)

جلس الكهل بجانب الشيخ ضاري، لوى رقبته ناحية العروس، فغم انفه عطر ساحر، قرب رأسه منها اكثر من اللزوم:

- المحروسة شسمها؟

- زينة

- ما شاء اللّه.. ما شاء اللّه..

تنسّم بقايا بخور علق بالثياب. سألها اتقبلين يا زينة...؟ اجابت بنعم بعد السؤال الاول. قرصتها الام. كانت تريد (النعم) بعد السؤال الثالث على مذهب العرائس في القرية. لكنها خرقت المألوف: بنات هالوكت مستعجلات. وما فائدة التنبيه بعد الـ (نعم) والمثل يقول لا ينفع المرأة الف (لا) بعد (نعم) واحدة.

*  *  *

ترجل الشيخ في باب القصر. صعد داود مكانه ليضع السيارة داخل الكراج. رتب الشيخ ما ينبغي عمله في ثلاث كلمات: ام العروس تنام في مشتملات القصر، بعد الزفة. العروس وعريسها تعد لهما احدى غرف النوم في القصر. الزفة بعد الشراب والطعام.

امر الشيخ خادم القصر ان ينوع مائدة الشراب:

- اذا ما نفرح بعرس داود اشوكت نفرح؟!

شرب داود بعض كؤوس البيرة (مكحلة) بالوسكي. تناول الشيخ زجاجة عرق ولوح بها لداود:

- شتگول؟ غير هذا ما ايفيدك!؟

- فدوه اغدي لك- صدگ- هذا الگولد ابو الحصان.. وما عداه كلها طرقات!

كحل البيرة بالعرق.. ثم صار يكحل العرق بالبيرة كلما غادر داود الى دورة المياه.

خطر لداود ان يتمدد على الارض عند قدمي الشيخ تعبيرا عن الامتنان. ثم عدل عن رأيه: (اخاف يگول سكران.. صدگ آني سكران؟.) اختلط الامر على داود ايهما رجله وايهما يده: ونشرت عليها عباءتي.. كان جسمها.. اوف!! واتيت بها الى ابيه.. (شعلي بأمها؟)

صار منظره بشعا تدلى رأسه فأستقر على مسند الكرسي.

سأله الشيخ، فلم يجب.

امر الشيخ ان تغادر ام العروس، ليزف العريس. اقفل الباب وراءها. قال

وهو يتملى زينة وفراشها:

- چنه فراش عرس من صدگ!

تأثرت بعض الشيء. سرعان مازايلتها الكآبة.

امضيا الشطر الاول من الليل سوية. تعاونا على سحب داود وتمديده فوق فراش العرس. افهمها الشيخ بلزوم معابثته واشعاره انه بين يديها.

افاق داود تنشق عطر عروسه. حاول استعمال حق من حقوقه كعريس. كان سكره شديدا. نام في منتصف الطريق، وارتفع شخيره. ازاحته عن صدرها وفكرت: ذلك يكفي. من ذا الذي يملك تلك القدرة. ويتمتع بالذكاء الحاد ليميز آثار القتيل في معركة.. ان كان مقتله وهو يستقبل الاعداء ام يستدبرهم- فاراً ام كارا..

اوحت اليه بعبارات ذكية، غداة غدا، لقد كنت فظا قاسيا لحظة اقتطاف الثمرة المدخرة. كان هذا ثناء يكفي لنفخة غرورا. حاورت نفسها بأنتشاء: لقد نجحت الخطة نجاحا منقطع النظير.

ابتسم الشيخ ضاري، حين رأى داود، وكان قد امضى ليلة مع زينة، حتى مطلع الشمس. حاور نفسه مزهوا ببراعته:

مهمات داود المتشعبة لاتنتهي فهو خادم متخصص في خدمة الضيوف الكبار، والافندية خصوصا، وسائق لسيارتي، ومأمور يجوب المزارع.. وبأختصار يمكن (دفعه) بسهولة ويسر. واروع ما في المسألة انه وزوجته يسكنان داخل القصر.

* * *

حاول جودة ان يحرك رأسه عن الوسادة عبثا، صرخ:

- يا يمّه.. يا يمّه.. ايريدون ياخذون حلالي وآنه عدل! زم حمزة شفتيه. زايله الاشفاق الذي الم به لمنظر عمه، فرد عليه:

- يا عمي انته بيا حال.. وينك ووين الحلال.. رجليك تتلولح بالگبر، وبعدك عاظ الدنيا بضروسك!

لم يرق لفرهود هذا التأنيب. بدا عاطفيا، شديد الضعف لمرآى ابنة عمه وهي تجفف دموع الانكسار، وحسرة على عمر اوشك ان يضيع.

تجمع عدد من الرعاة المقيمين في هور (المصندگ). جاءوا الى بيت جوده للتعرف على الفارسين. تهامسوا بعطف:

- اولاد اخوه

- ايه.. العنده گرابه بالشام ما ينضام...

- چنهم اولاده.. لكن هوه ما يفتهم، تخارب وياهم.

- اولها وتاليها الهم.

- ايه.. الماعنده ولد ايصير بخت الورثيه.

عاونهما الرعاة، اداءاً لحق الجيرة، على توثير ظهر الحمار، وضعوا عليه جوده. اوكل امر العناية به الى ابنته سكونه. حملوا امتعة البيت على ظهور الحمير، وسار بها حمزة، وتقدم قطيع الغنم فرهود يعاونه ارهيف الراعي.

استقبلهم خلف الى ابعد مسافة امكنه قطعها. اجهش بالبكاء وهو يرى شقيقه نصف ميت فوق ظهر الحمار.

جلس بجانبه، بعد ان سجي في الربعة، واخذ يعاتبه:

- يا خايب الحلال وصخ. مايسوا امگافاه وتخشن خواطر يا خايب ابن آدم اشياخذ وياه للگبر، غير وصلة الچفن، حتى غافل اطاه التومين وصلة

چفن.

اختنق بصوته. بكى جوده، مستشعرا دنو اجله، وهو يسمع نعيه على لسان اخيه. قال حمزة، ناصحا:

- بويه هسه موش وكت عتب. اتشوفه مريض وكلساع تنخلب روحه.. خلّه يستراح.

اقترح حمزة على عمه، ان يأتيه بسيارة تنقله الى الطبيب. رد المريض بصوت واهن:

- السيارة اتريد فلوس اهواي.. والطبيب ما يشبع من الفلوس..

انفجر خلف غاضبا:

- ولك المن اتريد الفلوس؟ انعل ابو الفلوس اللي ما تنفع راعيها..

ثم سأله خلف عن مقدار المبلغ الذي اودعه عند الحاج حنون واذا كانت له ديون بذمة آخرين.. واين يحتفظ ببقية نقوده..

اخرج جوده كلماته من وراء شفتين مطبقتين:

- ما عندي.. ما عندي.. بعدني عدل.. لا اتظنون اموت!! بصق خلف على الارض وصاح:

تف على فلوسك يا رذيل.. وتف على كلمن اله نفس بحلالك.. ولك لهالحد وبعدك ذاك انته؟

صاح حمزة بعصبية

- شنهي الطركاعه؟ عتب؟ عركه؟ ما اتخلي المريض مستراح.

لما انتصف الليل، استيقظ خلف على حشرجة جودة. صاح يدعو اهل بيته. تجمع الرجال والنساء والاطفال. قربوا الفانوس من وجهه. كانت

عيناه تستديران، لم يبق في جسمه عضو ينبض بالحيوية مثلهما، وحالما استقرتا على وجه سكونة، كف عن تحريكهما. حاول ان يتكلم. ارهفوا السمع. لم يطاوعه لسانه، ومات سره في صدره.

توافد الفلاحون على ربعة خلف، يقرأون الفاتحة.

اظهر حمزة كرما غير اعتيادي، في اعداد طعام الفاتحة.

قال حمود بن شنين، لنسيبه فرهود، وقد كلف بذبح خروف كبير:

– لو مرحوم عمك ماچل هذا الخروف بحياته چان تأجلت موتّه خمس اسنين– العباس كفيلك!!

# الفصل السابع

عاد الشيخ فالح بن سعدون من اوربا وقد نضج في ذهنه مشروع زواج ولده ضاري، فزفت اليه كريمة خاله هلال الصلال.. بعد مضي ثلاثة اشهر، شعرت زوجته ان ثمة امرأة اخرى في حياته.. بلغ الاحساس مرتبة اليقين، ساعة ضبطته بالجرم المشهود مع زينة زوجة داود، على نحو لا يحتمل التأويل.

هددت بترك البيت ونشر الفضيحة، مالم تبعد زينة ليس عن الحوش وحسب، بل عن القرية كلها.

طلب ضاري من داود ان يشيد مسكنا جوار بيت خلف. وقطع عهدا لزينة، ان سيعيدها بعد اشهر، ريثما تسكن الزوبعة.. ولن يبخل عليها بالزيارات هناك.

لم يمر الحادث دون همس، بين حوشية الشيوخ، تسلّوا به عدة ايام، ثم اضيف الى ما سبقه.

اخذ داود مبرر ترحيله مأخذ الجد: وهو ان يكون هناك عينا ساهرة، لا يغفل صغيرة ولا كبيرة. فالدنيا لم تعد كما كانت، الفلاحون بحاجة الى رقابة وضبط حديدي، لا يحسنه سواه.

سببت جيرته المتاعب لآل خلف: تعين على حمزة ان يراقب اباه، كي لا يفرط بكلمة ضد الشيوخ. وتحتم على فرهود ان لا يستقيل احدا، ممن كان يستقبلهم في بيته علانية..

استطاع حمزة، بتخطيط ذكي، ان يكسب داود الى جانبه ويجعل منه صديقا... انتزع منه سرا في لحظة تعاطف، وجاء يهمس بالسر لأخيه فرهود: الشيوخ على علم باتصالاتك المريبة، مع بعض الفلاحين، واستقبالك

للرجل (الحيّاوي).. ويعرفون كل شيء عن استضافتك للهاربين من اهالي الحي.. ويعرفون حتى متابعتك لاذاعة موسكو. وانا اوافق داود على رأيه ونصحه بأن تبتعد عن السياسة.

ركب حمزة وهواس من رقابة الشيوخ.. وعدم انصياع فرهود لنصائحه.

انصت داود مرة.. سمع حمزة يدعو فرهودا للقيام بعمل.. رد عليه فرهود:

- عندي شغل مهم.. ابوك معجبة اليوم يطلع سجاده النبي الحافظها السلطان.. واضاف يشرح دعابته:

- الزناد.. زناد ابن مهلهل.. اطانياه انظفه واترسه بانزيم. كانت لهجته ساخرة وهو يذكر ابن مهلهل فتوعده داود في سره:

- ما عاجبك ابن مهلهل ديّوس؟. آنه الك!

التقى خلف بداود ذات مرة فأنفجر يعاتب بيت مهلهل بشخص داود: هكذا يتنكرون بسرعة وبكل صلافة فيرحلون ملا نعمة بن حسين.. وكأن شيئا لم يكن بين سعدون وبين حسين.. بلابوش دنيا!

ثم ما هذه الرسوم الجديدة التي يبتدعونها كل عام ليسلبوا الفلاحين لقمة عيشهم.. لقد عاشوا دهرا من فضل خير العشيرة وها هم يصبون النقمة على العشيرة.. اهذا هو الوفاء؟

واذا اغتفرت كل هذه المساوئ.. هل تغتفر لهم جريمة احضار (تياترو) ترقص في مضيف (مهلهل).. وينفقون عليها الف دينار.. الف دينار، بلابوش دنيا! وكنت استدين له ربية واحدة من احميد ابو البينه اذا استدعي الى المدينة...

حنق داود: هذا العجوز المخرف من اين له هذه الكلمات، رسوم وترحيل.. وتياترو.. ولا يكتفي بهذا بل يقول امامي (احميد ابو البينه) وكأنني لست حفيده، وكأن كنية (ابو البينه) ضربا من العار؟! (آنه الك ديوس فرهود)

*  *  *

مرقت سيارة الشيخ ضاري، وقفت عند باب داود. امضى الشيخ هناك بعض الوقت، لقيه خلف، حين غادر البيت، فتحدر بعتاب وتقريع:

– ابن بن سعدون اتخلي ربعتي وتفوت! لا سلام ولا كلام، ما يعجبك غير بيت ابن ابو البينه، ياما چنت آخذ الذبيحة من جده لمضيف جدك عين تضحك وعين تبچي.. وياما وياما..

عندما عاتب داود حمزة. تساءل الاخير بحيرة:

– شنهو الاسويه يا داود.. رجال چبير وما ينفع وياه الحچي والوصايا..

– يعني هذا عيب.. يعني اتخلونه يشتم الناس؟

قال فرهود بحدة:

– چا قابل رحبسه؟!

انفجر داود غاضبا. تراشقا بكلمات قاسية.

*  *  *

في أمسية تلت الحادث جاء فرحان بن سويلم الصگر واسر لفرهود: تؤكد المعلومات المتوفرة لدينا ان الشرطة تعتزم القيام بـ (زرگه) لبيتك. اخفى فرهود بندقيته وبعض المنشورات.

جاءت الشرطة في الليلة الثانية، طوقت بيت خلف، استبد الذعر بحمزة، فنسي اخفاء مسدسه. أجرت الشرطة تفتيشا دقيقا فلم تعثر على شيء. اشار المفوض الى حمزة، يامره بخلع المسدس، فتدخل داود في اللحظة المناسبة، وزعم ان المسدس له، وداود ليس نكرة بالنسبة للمفوض، فأعيد المسدس، لحظتها تذكر حمزة بندقية فرهود: لابد انها بيد الشرطة. ولكن ياللعجب كيف تسنى له اخفاءها؟

تشاجر الاخوان بعد ذهاب الشرطة وتصايحا بصوت مرتفع، تدخل الاب، فلم يلتفت اليه احد منهما، فأمسك حمزة من ذيل دشداشته وسحبه:

– ولك اكعد سولف لي، شنهي الطرگاعة؟ صايره سلبه بالدرب وتاهمين بيها فرهود؟

– لا. فرهود متهوم بالشيوعية.. وهاي الطلايب كلها من وره شيوعية فرهود!

– ولكم هيه غير اجتنا من الراديون، ذبّوا الراديون اكفونا شره.. ولا تتعاركون..

احتدم النقاش بين الاخوين، فبكى خلف وصاح بصوت متهدج:

– ولكم خلوني لما اموت يالله تتعاركون.

لما اختلى فرهود بأبيه اوضح له:

– الشيوخ يتهموني احچي عليهم واحيل الفلاليح ضدهم. وهاي الطلايب من الشيوخ والزرگه بأمر الشيخ...

قال خلف لنفسه بعد يومين من الحادث:

باءت محاولاتي بالفشل ولم اوفق بين ولدي.. ولكن شروط حمزة قاسية:

ان لا يذهب فرهود الى قريتي (العلوة ومويلحة) ولا يستقبل في بيته كائنا من كان.. ولا يتحدث بالسياسة.. ولا يسمع من الراديو الا اذاعة بغداد. أهو محق فيما يريد؟ أهو صادق في اقواله:

اصبحت مكلفا بقطيع ضخم من الغنم- ارث جودة- وقد يمنعه الشيوخ من الرعي في مقاطعتهم اذا ساءت علاقتي بهم. وقد يسحبون مني (السركلة) وهي ليست بالشيء اليسير، وما هو اهم من ذلك لست على استعداد لدخول السجن، ونقل (هزز) التراب كالتي وصفها عبيد المنتاز او أقتل في السجن مثل جماعة ملا نعمة. لم يجد فرهود في شروط اخيه واحدا ممكن التطبيق. فكلها مذلة ومهينة لا يمكن قبولها اطلاقا.

ذهب فرهود الى السيد حسن الكربلائي.. اتفق معه على فلاحة وحدته الاستثمارية الممنوحة له بمشروع اللطيفية. وقرر الرحيل الى هناك.

اعلنت الام انها لن تفارق فرهودا وسترحل معه.

وقف خلف مشتت الافكار، لا يدري ما الذي يفعله:

اما انت ايها الشايب الذي اثقلت السنون كاهله.. وتدلت قدماه في حفرة اللحد، اما انت،اتعس الجميع، لم تتخذ قرارك مثل الآخرين هذا آثر المرعى الجيد لقطيع صار- اويوشك ان يصير- ملكه وسركلة تمنحه بعض الجاه وترفعه درجة فوق الفلاحين.

وذاك اختار كرامة وشيئا آخر لا ادريه- يختزنه في دماغه- وهي لم يصعب عليها الاختيار فأما العيش مع الاكبر او الاصغر، واختارت الاصغر، وليس على اختيارها اي غبار- اما انت ايها العجوز الذي كتب عليه ان يكون شاهدا على مئات وآلاف الاشياء، من ذا الذي يشهد عليك؟

لم يقف في صفك احد، ولا حتى متفرج عليك.. اعرف ان لها قلبا ينبض وتعرف ان لي مثله لكنها بالغت في الامر وحملتني اكثر مما احتمل- هل ارحل معها واموت هناك- فيحملون نعشي للثواب؟

(رحم اللّه والديه من ساعد على غسل الغريب ودفنه) لا..، هنا. وتركت عكازته آثارا عميقة على الارض: هنا تهتز الارض تحت اقدام الرجال وهم يشيعون جنازتي ويقول شاعرهم شيئا كما قال يوم تشييع جنازة حسين:

**جبل حمرين هذا الشايلينه ارجال**

**يا سيل العرم يلما يرد لو سال**

وينشرن الشعور نادبات وتردد الشاعرة كما رددت في مأتم حسين:

**ابو ناصر سبع يا حيد يسنافي**

**يا هدمة جرف يلتخبط الصافي**

ولئن كانوا يختلقون للميت بعض الامجاد او ينفخون في الصغير منها ليكبر، فأن لي منها الشيء الكثير ولطالما شهد لي حسين وحتى مهلهل ومن بعده سعدون. ويشق الرصاص سكون الافق ويتساءلون من بعيد لمن؟ هذه جنازة خلف. هذا شيء لن اتنازل عنه ولن اعدله بملك الدنيا هل تعلمين؟ لقد شهد هذا الثرى حبوي رضيعا ولعبي صبيا.. (ام احچيم واعظيم اللاح.. وهوله.. وحجوه). وحب لا اظنك نسيتيه. آه يا عنفوان الشباب بمتعك وسخافاتك.. وما احلى ايام الكهولة والمعشر الحلو لولا ان لوثه سعدون بخبث ما كان له ان يلطخ به سمعته، لقد تركها للوارثين يبددونها على الكاوليات ومثلما احتل غافل ذراعين للقبر احتل هو ذراعين. بلابوش دنيا..!

اما انت يا حسين يخيل الي ان هدوءك وموتك المستريح.. آه يا حسين لازلت اذكر كيف اطبقت جفنيك. يخيل الي ان هدوءك بسبب من انك قررت الاختيار. عرفت دربك وليس مثلي ما الذي كنت تعنيه بقولك (يا خلف انته محد يعرفك) ثم تستدرك وتقول: (لولا كلبك كلب طفل) يا حسين اني اتعذب لصعوبة الاختيار، قلبي معها، قلبي مع فرهود.. ولكنني هنا يا حسين اطمع فيَ ان تهتز الارض تحت اقدام الرجال كما فعلوا يوم جنازتك. ما اصعب الاختيار. احسب ان غافلا لم يتردد وان يكن اختيارا ذليلا وتبعية اشبه بتبعية الكلاب.. لا. انه ليس اختيارا.

اما انت ايها العجوز والموت البغيض يترصدك بعين لص طال انتظاره لغفلة صاحب البيت، لابد ان تقرر لابد من اختيار ترتاح اليه ليس بلسانك ليس بقلب متردد. فليكن اختيارا تستقر عنده، تتعكز عليه مثل هذه. وتركت عكازته مرة اخرى آثارا أعمق.

*　　*　　*

عجزت اعصابه عن تحمل الازمة، بعد رحيل فرهود، وارتمى طريح الفراش، فلازمته سكونة بنت جودة ليل ونهار. كانت الشمس فوق الهامات مباشرة. ولا شيء يشغل الاذهان الا العطش ويتزاحم العطاشى وقد اضناهم الدرب الطويل. بلغ شجرة السدر. هي نفسها. استظل بها في شاطي نهر دجلة القديم- جانبه الشرقي- وتحتها بئر نبع ماؤه بسهولة. وقالوا محذرين. لا يخلو شط الدجيلة القديم من الوحوش المفترسة ولكنه نام تحت شجرة السدر في ذلك الظل الرائع- هي نفسها شجرة السدر- ونفس البئر. ويجلس في ظلها صبوح الوجه يمسك ميزانا نحاسيا لماعا

مثل ميزان حجي حنون. وعن يمينه كوز ماء يترقرق وعن يساره كوز لبن شنين.. وامامه ووراءه اشياء لا حصر ولا عد لها كان يلهث لشدة العطش. ارتمى تحت شجرة (كبر) ليس فيها ظل جيد اشواكها تدمي الظهر لم يعد قادرا على الحركة. جف لسانه تماما. وكانوا يتزاحمون يفصلهم عن الرجل ذى الوجه الصبوح خط رسم على الارض بعناية. ولا يدري كيف تسنى له معرفة (خطة العباس) وتقدم سعدون يتدلى لسانه من شدة العطش. تذكر الكلب الذي صادفه في حر السموم عند شاطي نهر دجلة القديم هكذا كان لسانه.. اشار بيده الى كوز الماء. فحرك الرجل رأسه وقال شيئا قريبا من كلمة (هيدا) اشار سعدون الى كوز الشنين فقال الرجل ذو الوجه الصبوح (برا) وغمغم سعدون: اعطيت السيد الروزخون.. اعطيت.. اردت ان اتكلم.. اعطيت.. ثم مالبث الرجل ان اخرج الزناد هو نفس الزناد، قدحه.. فأشتعل.. قرب لهبة النار الى ثوب سعدون الابيض صرخ وولى هاربا والنار مشتعلة في ثوبه. تقدم رجل نسي من هو.. قال بضع كلمات فناوله ذو الوجه الصبوح طاسة لبن.. ووضع له في الميزان شيئا مثل الطبيخ. وجاء احميد ابو البينه.. وغمغم بكلمات لم يسمعها الا الرجل ذو الوجه الصبوح.. ولم يتحرك الميزان.. رفع احميد صوته وقال: حرمت على اولادي ان يسرقوا وكانت السرقة عنوان رجولة العصر.. ابتسم الرجل وناوله طاسة ماء.. اراد احميد استبدالها بلبن فأجابه الرجل: كل الغنم ما اشبعتك لبن؟!

ثم تحرك الميزان.. وضع فيه ذيل سمكة.. وناوله كسرة صابون. قال احميد افهم هذا يا سيدي فلا يصح ان يؤكل السمك دون تغسيل

بالصابون فيما بعد. اجابه الرجل ذو الوجه الصبوح لا. اغسل بها ثيابك الوسخة ويديك قبل ان تاكل السمك، وبعد اكل السمك انت حر.. ان شئت غسلت وان شئت نمت بلا تغسيل.. كان احميد كعهده وسخ الثياب قذر اليدين والرجلين.

وجاء صقر كما كان شابا ممتلئ الجسم. فحياه الرجل ذو الوجه الصبوح على البعد وقال اهلا بالشجاع ثم ناوله طاسة لبن وتحرك الميزان وراح الرجل يضع اشياء كثيرة حتى امتلأ الميزان.. وتقدم ناصر بن حسين في عنفوان شبابه وقال للرجل لقد وقفت بوجه الظلم قال الرجل اعرف هذا وملأ طاسة الشنين وطاسة ماء وقال امسك كل واحدة بيد وخذ جرعة من هذا وجرعة من هذا، انه شيء رائع. جربه. جربه.. وجاء حسين ونفس الابتسامة تشرق على محياه وقد خضب لحيته (بالوسمة) فبدا لطيفا مهيبا.. ونهض الرجل ذو الوجه الصبوح اجلالا لحسين.. وشرع حسين يتكلم نفس الصوت العذب وكأنه ينشد الشعر ولكن مسبحته تتدلى لم يداعبها كما كان يفعل من قبل وقال دعوتهم ان يكونوا رجالا كنت اذكرهم دائما بأنهم بشر لم انقطع عن تحريضهم ضد اللصوص. ويحرك الرجل رأسه اعجابا فيما تتحرك يداه تحمل اشياء.. يضعها في الميزان لمح من بينها بطيخة ناضجة. وملأ له طاستين. اشرت الى حسين بأصبعي، لم يكن بمقدوري الكلام ناولني الطاسه. ولما فرغ كفه جمع السبابة والابهام وحركهما بوجهي معيّرا (بنْ!!! حتى مرتك ابعدوها) شربت ما في الطاسة لم ارتوي. وقف حسين غير بعيد يرامقني. تقدم جودة تمتم بكلمات كثيرة.. ولم تتحرك يد الرجل.. اخيرا قال الرجل ذو الوجه الصبوح: اشفق عليك

لشيء واحد فقط كنت تحترم سكونة وتحبها، وملأ له طاسة من كوز الماء.. واعطاه حزمة دنانير.. قال جودة ما الذي افعله بها.. في هذه الصحراء الموحشة؟ انا جائع اريد بدلا منها- لقمة عيش.. حرك الرجل ذو الوجه الصبوح رأسه نفيا وقال اضفها الى دنانيرك المخزونة. تقدمت وقلت: زرت كربلاء والنجف مرتين.. لم يتحرك الميزان.. اعطيت السيد الكربلائي.. لم يتحرك الميزان.. نصحت حمزة ان لا يحول بين سكونة وبين الزواج، ولكن لا أمر لمن لا يطاع. تحركت يد الرجل وضع في الميزان سمكة.. وغرفة طبيخ وبطيخة وكيس تبغ ولما رأى خلف يرامق الزناد ناوله اياه وقال خذه شباهدا.. ضحك حسين ضحكته المألوفة..

فتح خلف عينيه واستفاق من نومه، كان ثوبه مبتلا بالعرق. جفف العطش لسانه وشفتيه صاح:

- يا هو الهناه؟

ردت سكونة على الفور:

- ها بويه..

- اشوية ماي (الحمد للّه والشكر للّه)

هذا اشلون طيف ايدوّخ!

* * *

زارته العافيه بعد حين، برأ جسمه من العلة العارضة، عاد سيرته الاولى يتسلى بالمشي بعيدا عن البيت، مؤثرا (مقام سيد سراب) على سواه.

استبد به حنين لا يقاوم.. لم يعهده من قبل: لا اتذكر سيئة واحدة طيلة الرحلة المضنية والممتعة والمعقدة والسهلة مع ام حمزة. ليس ثمة ما

توآخذين عليه الا هجري في اشد ايام حاجتي لقربك. نعم الحبيبة والزوجة والصديقة والممرضة. كنت قادرا على مغادرة الفراش.. اعفيتني من ذلك.. حملت الاناء مملوء بالرماد: اخاف عليك من البرد، وليس بيني وبين القعود الا اياما.. فمن يحمل الاناء مملوء بالرماد؟ من يرفع القاذورات من تحتي اذا خذلتني قواي؟

قلت عن الارض قسمة ونصيب (لا ابو قليل هلك ولا ابو جثير ملك) اما ان تشتتوا الشمل الذي جمعه اللّه، فذلك مالا تسامح فيه، جعلتم الشقيقين يختصمان وفرقتم الزوج عن زوجته. الويل لكم من ذلك العطش الرهيب ولقد رأيت لسانه يتدلى مثل كلب يلهث واشعل كفنه بنفس الزناد. وسأعرضه شاهدا على الخداع والكذب.. كنت اكره الكذب كنت احاول ان امنع الناس عن الكذب كنت اصدقهم.. وهذا شاهدي- قال خذه شاهدا لن يضيع شيء ولن يفلت مجرم من الحساب. ولكن يا عجوز يتعلق بذيل حلم في ليلة سلقتك الحمى، ما ادراك بالشفاعة فقد يتوسط السيدان الكربلائي وابو شرارة عند جدهما وشفاعة الابناء عند الآباء مقبولة. وهكذا ينجو بيت مهلهل من العقاب ويبقى الغيظ يأكل قلبي، لا فرق عندي سواء كنت في الجنة ام النار.. فما الذي اصنعه (بنْ-.. حتى مرتك ابعدوها) وقال وهو على المنبر الشجاعة من الايمان.. الجبان عدو اللّه.. ولكن اين هو العدل؟، هذا شاهدي الم تقل خذه شاهدا؟، مد يده الى جيبه واخرج الزناد. تناهى اليه هورن سيارة وضع كفه فوق حاجبيه ودقق النظر:

اهذا انت يا ابن بن الغشاش... ولا تحلو لك الا معاشرة ابن ابو البينه.. أبعدتها وابعدت فرهودا وزرعت العداوة بين اخوين... هاه.. (بنْ.. حتى

مرتك ابعدوها).

جاء مزاج الشيخ ضاري ان يداعب خلف.. لحّن نغما سريعا على الهورن. ارتعشت يد خلف:

- ها انا ابو حمزة...

طيط طيط!!؟ شنهو فرق الطيط طيط عن العفطه؟! تعفط لي يا ابن بن الغشاش!!

ارتطم الزناد باللوح الزجاجي.. تطايرت شظايا الزجاج..

تدفق الدم غزيرا من وجه الشيخ ضاري.. تعذرت عليه الرؤية.. كبح السيارة بقوة. كان خلف قد استجمع شتات قواه ليودعها في تلك الضربة المحكمة.. القى الزناد.. سقط جانبا مغمى عليه. هرع آل خلف وآل اشنين.. وداود.. ظن الجميع بأن سيارة الشيخ دهست خلف..

أرعبهم منظر الشيخ ضاري يسبح بدمه.

أشاع الشيوخ وحوشيتهم بين الفلاحين: جن خلف.. وان اول فعل جنوني، إصابته الشيخ ضاري بجرح خطير.

توقع حمزة اشر انواع العقاب، واستسلم للمقادير. لكن الشيخ، لأمرما، اكتفى بتأنيبه وامره بحبس خلف داخل البيت..

لم تعد ثمة حاجة لحبسه، فقد اجبره المرض على ملازمة فراشه داخل الربعة.

* * *

تهامس الفلاحون شماتة بالشيوخ:

- عاشت ايدك ابو حمزة..

ونصح آخرون: دعوها تجري كما شاءت (جن خلف) فذلك ادعى للطمأنينة على ولده، من غضب الشيوخ وطيشهم.

*  *  *

صاح خلف يأمر حمزة:

- روح دور ازنادي الگطفته على المنعول والدين!

نظر اليه حمزة.. ثم هز يده وغادر الربعة دون ان يفوه بكلمة. استدعى خلف حمود بن شنين، وكلفه بالبحث عن الزناد.

اجتهد حمود في البحث ولكن لم يعثر عليه.

عقب سويلم الصگر على فعلة خلف:

- وين چان عزمك مضموم؟! هلبت تحركت بيوم اخذوا ديماتنا..؟ فگر صگر چان نايم عليك!!؟

واجابه اخوه كزار الصگر:

- خلف مثل بلم (بيت رصاص) لمن غرگك شال الشراع!!

# الفصل الثامن

أحدث وجود ملا نعمة تغييرا في ملامح المنزل، والى حد ما، في شكل العلاقات بين الاخوين.

نقل كامل سريره الى غرفة فاضل، ليشغل الملا غرفته.. فتعين عليهما أن يتحاورا قبل النوم، في كل ليلة.. أحيانا لا يتجاوز حوارهما الجواب على سؤال واحد.

عرفا بالتجربة أن لابد من ثالث، ليكون محورا يحركان الحديث حوله. فان جلسا وحدهما خيم الصمت.

يلتجئان أحيانا لمحاورة الام، اذا ما أحسا رغبة في حديث خال من الكلفة، ومن خلالها يتبسطان في تناول الموضوع المقصود..

عاتب فاضل نفسه أكثر من مرة: لو تخلصت من آثار التربية المتزمتة- بطريقة ما- لقلت ساعتها صرت (أفندي) حقيقي أما الآن فلازلت فلاحاً يرتدي البنطلون..

جعلهما وجود ملا نعمة يتبادلان الرأي باستمرار.. أوشكت آصرة الصداقة ان تربط بينهما، الى جانب آصرة الاخوة..

* * *

تناول كامل دفتر الشعر. أخذ يقلب صفحاته.. وقف عند قصيدة (الغريب).

ولما فرغ من تلاوتها سأله اخوه:

- ها.. رأيك؟

لو كان الملا بينهما لقال كامل رأيه..اختار اجابة غير واضحة:

- لازم اقراها مرة ثانية..

كانا بانتظار عمهما. وعد بالمجيء حالما يستبدل (دشداشة) العمل ويغسل وجهه من غبار الحصو والرمل وبقايا الجص (فلابد من وقوفه مع كل (لوري) يدخل ساحة العمل، يعد أكياس (الجص) ويذرع كميات الحصو والرمل بالمتر والسنتمتر.

قال فاضل لعمه: هذه (الغريب) التي ذكرتها لك من قبل. وقد احجم كامل عن اعطاء رأيه.

جعل الصفحة في مواجهة المصباح، وراح يقرؤها بامعان.. رفع رأسه. تطلع في وجه فاضل ثم ابتسم وأتبع ذلك بتحريك أرنبة انفه.. وطرف بجفن عين واحدة..

أدرك فاضل أن عمه يتساءل بصمت: هو غير راض عنها بالتأكيد:

- رأيك؟

- المعنى لطيف..

ارتفعت حرارة النقاش بينهم.. أحيانا يلامسون أطراف الجد.. ثم تعود بهم معابثات فاضل الى الهزل..

صفق ملا نعمة كفا بكف، وقال:

- شغلتني (الغريب) عن رواية أهم خبر سمعته.. نويت اعلانه قبل تبديل دشداشة العمل..

- ؟

- خير؟

- ثورة في البترا!!

- ثورة؟

فروى لهما هجوم خلف على ضاري بن فالح وتحطيم زجاج سيارته بالزناد.. واصابته بجرح بليغ- بين الجفن والحاجب..

هتف فاضل بسرور:

- بلابوش دنيا!

ثم التفت الى كامل، ولما يتخفف من ضحكته بعد، وقال بنبرة تهكمية:

- هذا طبعا حادث فردي! يؤدي الى تشديد الارهاب ويعطي مبررا.. الخ الخ!!

- أعرف أين مرمى كلامك، لكن مناقشتنا ليلة أمس كانت على مستوى آخر، ثم التفت كامل الى عمه موضحا:

- يعتقد فاضل ان اغتيال نوري السعيد يدفع نضال الشعب العراقي الى الامام.. وكان رأيي..

قاطعه ملا نعمه بخشونة:

- أغرقتما الخبر الطريف السار بمناقشة جافة.. وكأنه لا يستحق الاهتمام.. وكنت على يقين من انه سيحرك قريحة فاضل لنظم قصيدة او مقامة رنانة لتخليد معركة الزناد!!

أجاب فاضل، بجد لا يناسب جو المرح:

- على العكس. لقد حال هذا الخبر بيني وبين مشروع قصة أوشكت على ارساء قواعدها، وكان مقدرا لخلف أن يكون بطلها.. الآن تبدلت نظرتي الى خلف.. ولم يعد صالحا لبطولة القصة.

نظر اليه عمه، وفي عينيه تساؤل..

فأردف فاضل موضحا:

- كان خلف مثاليا (مسيح من طراز آخر..) لم يعرف الحقد طريقا الى قلبه..

قال كامل مقاطعاً، لينفذ من هذه الثغرة، ويفند وجهة نظر أخيه، قبل فوات الاوان.

- اذا لم يحقد ولم يثر على أولئك الذين اغتصبوا لقمة عيشه، فليس سوى مستعبد رضي عبوديته..

أمعن فاضل النظر في وجه اخيه ثم اكتفى بالقول:

- قد تصبح مناضلا ثوريا جيدا.. وقد تصبح سياسياً بارعاً.. أما كفنان فلا..

وبعبارة أوضح (حسبتك واكفه بالفن!)

ثم التفت ناحية عمه، وبسط وجهة نظره:

- كان خلف يتميز عني وعنك بكونه لا يعرف الحقد- وهذا ما يؤهله لبطولة قصتي مثلا- أما وقد أمسك الزناد وحطم زجاج سيارة ابن مهلهل وأسال دمه، لم يعد في نظري سوى شخص اعتيادي.. يغضب ويثور ويثأر..

والتفت ناحية أخيه وقال بلهجة مناكدة:

- مفهوم أستاذ!؟

*  *  *

**لا يوم جوي من غيوم الاسى منجلي**
**لاني لهلي ولا لحبيبي ولانه منجلي**

رفع خلف صوته بهذين المقطعين من الموال.. ثم أقام جذعه ليستند على

الحائط. كان حريصا على بقية من قوة، حرص الغريب على ثمن تذكرة سفر تعيده لوطنه، بعد طول اغتراب: لقد استجاب لك ربك يا حسين وحقق دعاءك الاثير (ياربي حسن العاقبة) كانت البسمة على شفتيك وانت ميت. لم تتألم. ولم يقعدك المرض. لم يطل بك المرض (ياربي حسن العاقبة) ان كان يعجزك شفائي فيسّر لي حضور زوجتي تتولى امري ساعة اعجز عن قضاء حاجتي خارج الربعة.. فلا حرج ولا خجل منها. لازلت قادرا على الزحف الى خارج الربعة.. لكنني أعاني الكثير حين تخلع سكّونة دشداشتي لتغسلها.. أو تلبسني اياها..

*　　*　　*

وجدت سكّونة في تمريضه والعناية بأمره شيئا من السلوان، وشيئا من تحقيق الذات:

انا الاسيرة التي أخضع لارادة حمزة.. ولا أملك من أمر نفسي قليلا أو كثيرا. وليس بمقدوري التصرف بميراث أبي، الظاهر للعيان، لا أعرف عن مستقبلي عشر معشار ما يعرفه حمزة، ومع ضعفي هذا أجد من هو أضعف مني ولا يستغني عن معاونتي..

بالغت في حدبها عليه، فهان عليها ما أدخرته ليوم الشدّة.. وصارت تكلف مطشر بن حمزة بالسفر الى المدينة كل ثلاثة أيام ليشتري الفاكهة والمخضرات لعمها المريض.. وتبتاع الدجاج من قريتي مويلحة والصالحية.. فاعتاد خلف أن يسمع من سكونة:

– اليوم أشتشتهي غدا بويه؟

كان حمزة متردداً.. لا يقطع بوجود مبلغ ضخم، بين يدي سكّونة.. ولكن

انفاقها، الى حد التبذير في نظره، على إطعام أبيه جعله يقرر: صحيح أن عنايتها بأبي واطعامها له بر في مواقعه، ولكن لكل شيء حدود.. وينبغي افهامها بأنها ليست حرة في جميع تصرفاتها، ولابد أن تفهم القاعدة (المرأة وما تملك ملك الرجل) وهي الآن ملك رجل.. فقد قررت تزويجها لولدي مطشر.. أما فارق السن بينهما.. وتلك مشكلة حقيقة.. ولكنها ليست بدعة بين العشائر.. وسوف تتلاشى.

الحل.. هو.. التعجيل بالزواج.

*　　*　　*

دخل سويلم الصگر وولده فرحان ضحى، الى ربعة خلف فاستبشر بهما وحاول النهوض، لكن سويلم عاجله:

– بروح حسين تگعد.. لا تتحرك.. وثنى ركبتيه أمام خلف فتعانقا..

عاتبه خلف بود: تنقطع عني عشرة ايام.. وانت عليم بوحدتي وقعودي..

ثم التفت الى جهاز الراديو وقال:

– جزاه اللّه خير! صار سلوتي.. چنّه رازونه اتنوع منها على الدنيا كلها. وآنه جاعد بربعتي..

وراح يعدد محاسن الراديو: انه صديق ولا كل الاصدقاء.. تأمره انّى شئت فيتكلم.. لا يعتذر بتأخر الوقت ولا يشكو سوء المزاج، تسكته حالا وبلا مقدمات فلا يثور لكرامته!!

تتعرى أمامه.. تكشف عورتك فلا تتحرج! انه صديق مريح!

سأله فرحان بن سويلم:

– جدي. تعرف كل حچيه؟

– شنهو شغلي بكل حچيه؟!! بعضه اعرفه وبعضه ما أعرفه.. والاكثر ما اريد اعرفه.. وتساءل بغتة: لم اعرف بالضبط ما هذا القمر الذي يتحدث عنه؟

تعلمون أن صحتي لا تساعدني على الخروج من الربعة ومراقبة السماء ليلا.. فهل رأيتم هذا القمر الجديد؟

اغتنمها فرحان فرصة وأجاب باعتزاز:

– جدي. هذا گمر السوفيت.. ربع فرهود.. هذا گمر صدگان فرهود!

كان هذا كافيا لتقريب القمر من قلب خلف، ومع ذلك تساءل:

– شنهو نفع هذا الگمر؟

تلكأ فرحان في الاجابة– لم يكن يعرف ما هي فائدة القمر الاصطناعي..

اعاد خلف تساؤله دونما انتظار لاجابة فرحان: هل يفيدني بشيء؟ كأن يعيد لي شبابي؟!! او يؤخر موتي؟ هذا ما يثير اهتمامي الان.

لماذا لا يتوجه هذه الجهود الضخمة التي أوصلوا بها قمراً يدور بجانب القمر الازلي– الذي خلقه الباري عز وجل– لاكتشاف دواء يطيل عمر الانسان؟!

سأله سويلم الصگر عن موعد (زفّة) مطشر بن حمزة على سكّونة بنت جودة، فدهش خلف لانه خالي الذهن تماما من هذه المسألة..

وحين أكد له سويلم قرار حمزة بهذا الشأن، واعلانه في أكثر من مكان. اكتفى بالقول:

– ايه.. يا ابن صگر.. گالوها اهل العگل: الما ينسمع له امر ايكف لسانه

*  *  *

قلبت الامر سكّونة مع نفسها: انه صبي لم يتجاوز السابعة عشر من عمره. ولا أدري متى تجاوزت الثلاثين؟! فأي شيء يصلح أساسا للزواج؟

قد يكون رأي خلف الذي بسطه اليوم فيه شيء من الصواب: المرأة العاقلة تصنع الرجل كما تصنع رغيف الخبز من (دالوچة) العجين..

*  *  *

ونظر مطشر للامر بشيء من الزهو:

انهم يعترفون برجولته. وزواجه بسكّونة يتيح له التمتع بأكلات شهية كالتي تصنعها لجده خلف! وقد تعطيه ما لديها من نقود مدخرة.. ومن مستلزمات العرس (قاط) جديد. وعلى اية حال فليس الزواج قيد يشل حركة الانسان..

*  *  *

باشر حمود بن شنين، وكذلك مطشر (العريّس) قرع الدنابك والغناء.. قبل موعد الزفّة بثلاثة ايام، وتجلى صوت مطشر الرخيم، حتى بكت زينة لفراق الحبيب..

وبكى خلف، دون أن يشعر به أحد.

أحست سكّونة بلذعة غيرة، وهي تسمع تأوهات مطشر:

لا يمكن صدور هذه التأوهّات عن فراغ!! وتساءلت: أتراه تعلق بفتاة، وهو في مثل هذا السن المبكر؟

وأجابت بنفسها: من يدري؟!

(اولاد هالوكت!) قد يفعلون أكثر من ذلك!!

*  *  *

فكّر الصبي، رهيف المحمد، راعي شياه سكّونة وهو يمسك شاة للحلب: كنت أرهبها من قبل.. اتحاشى نظراتها. والآن تتزوج صبياً لا يكبرني سنا ولا جسما.. وسوف ينام معها كزوج.

ترى على أية صورة ينام العريس وعروسه؟

ان لها أنفاً يشبه عرنين الخروف الاشقر.. لولا هذا الانف المفرط في الطول والعلو.. ما أجملها.. لقد انجلت سمرة وجهها في الايام الاخيرة لمجرد علمها بخبر الزواج. ما أسهل أن تبدل المرأة بشرة وجهها..

خبطت بكفها على فخذ الشاة ايذاناً بانتهاء الحليب.. لم ينتبه، أشارت اليه بكفها.. لم يفطن للاشارة..

زجرته بنبرة حادة:

- اشمالك ساهي؟ عاشج!!

*  *  *

اختبأ ارهيف المحمد وسط الغنم، ليلة الزفّة، وزحف بخفة الثعلب، يتلصص على العريسين.. شاهد تسواهن بنت حمزة قد سبقته الى الالتصاق بـ (جمّالي) العروس، تسترق النظر من كوة مغلقة.. نهرتها امها بشدة (وكان لها من العمر عشر سنوات) فولّت هاربة، دونما شعور بالخجل.

*  *  *

في صبيحة يوم العرس، ضحى، عاد داود من قرية الشيوخ، فناول

حمزة خمسة دنانير، أعلن انها اكرامية الشيخ ضاري للمناسبة.. أثنى حمزة على لطف الشيخ، وعدم اهماله للمناسبات..

فحدجة خلف بنظرة احتقار، ولم يحتمل السكوت. انفجر غاضبا وقال بصوت اجش:

- گوم (انعل ابوك لابو كلمن ما عنده نفس أبيّه) ، يا حيف تتسمّى ابني، ولك انته عايز للخمس دنانير؟ عايز حلال؟ عايز طعام؟ اتهز بذيلك على اشچم فلس اموديهن بيد الطروش! كون يعرفون الاصول چامايجي بنفسه ويتبارك لك بعرس ابنك؟!

ومد فكّه الاسفل، فغدت كلماته مثيرة للضحك بعد قلب الحروف:

- انّه يطون عمنه!.. انّه يخنيه.. ذخن للعشينه!!

تعكر صفو المجلس.. واستاء داود مما حدث، فغادر الربعة حانقا..

استغاث حمزة بالناس وبالملائكة من ابيه. فتعالى صوت خلف يشتم الشيوخ.

تحرج بعض الجالسين من اصغائهم لشتائم الشيوخ.

أسرع احمود بن شنين، فحسم الموقف بقرع (الدنبك)، وبايقاع سريع، طغى على شتائم خلف.. ثم نغم ترديدة مرتجلة:

خربت يحمزة خربت..

دار اللبن علشربت!

وصاح سويلم الصگر:

- دگك ابو طبل دگك..

ترا بس تسكت يثور الطوب ابو خزّامه!

*  *  *

قال فاضل: لا أبدي اعتراضا ولا أمنح موافقة.. اجهل كل شيء عن هذه الامور. أفضل الاكتفاء برأي عمي. أسأله الليلة..

سأل كامل عمه. فاستوضح ملا نعمة:

– منين الولد؟

– يشتغل وياي بالمطبعه..

– منين هوه؟

– من الديوانية..

– أقصد عشيرته؟

– واللّه ماأدري..

تطلع الملا في وجه فاضل، فكانت تعابيره توحي بعدم الاهتمام.

تساءل الملا بانكار وكلامه موجه لكامل:

– توافقون على زواج أختكم من شخص ما تعرفون عشيرته؟؟!

رد كامل، وفي لهجته اعتراف بالتقصير:

– حگ وياك.. اليوم اسأله.. واسأل الناس اليعرفونه.

سأل كامل زميله، محمود، عن العشيرة التي ينتسب لها، مشيراً الى ان هذه رغبة عمه، فأجابه محمود:

– واللّه ما ادري بالضبط. بس اللي اعرفه.. ابوي اجا من الديوانية.. أني فتحت عيني ابغداد.

رتّب الصديقان جوابا مقنعا. وجاء كامل ليبلغ عمه ان زميله ينتسب لعشيرة الخزاعل. فرد الملا:

- والنعم. والثلث تنعام.

ومنح موافقته على الزواج.

اندهش الملا من سؤال فاضل، الذي أقحمه في هذه اللحظة:

- عمي قريت قصتي (حامل أختام الملكة)؟

- لا.

- ضروري تقراها!

* * *

مد عنقه، وادخل رأسه من باب الحجرة، ولما يزل جسمه خارجا معتمداً كفه على الحائط..

فرفع فاضل كأسه وهتف:

- صحة العم العزيز. الصديق الصدوق. المؤدب الخلوق. الثقة الوثوق.

- لا أرتاح لهذه (الوقوقة!). وقلبي يحدثني بأنها ستجر الى ما لا تحمد عقباه!

ضحك فاضل وقال:

- فلنستبدل.. وسوف أستهل التحية بعبارة ذي الخلق الدمث.

قطب ملا نعمة حاجبيه وقال:

- حذار من هذه الدمث الملعونة.. أراهن على انها ليست لفظة مديح.. واراهن على انها لم ترد في القرآن..

وربما كانت في الاصل شتيمة، فاستعملت خطأ.. وغدت من الاخطاء الشائعة!

ورفع فاضل ذراعيه وقال:

– اذن، اختر الحرف المناسب؟!

رد الملا مبتسما:

– استأذنك الانصراف اولا، لخلع دشداشة العمل، ثم أعود لنبحث أمر القوافي!

* * *

نشط ذهن الملا، بحثا عن المناسبة: من أجل شرب العرق لن يعدم المناسبة، ينقب في زوايا ذاكرته وصفحات التاريخ.

حرم على نفسه الشرب، اثر حوادث مزعجة، سببها سكره في الحانات:

أوقف ثلاثة ايام– لتعريضه بالملك– وهتف بحياة الوحدة يوم اعلانها بين مصر وسوريا، فأحاطته الشرطة من كل جانب.. لكن مجموعة من الشبان خلّصته من يد الشرطة.. واوصله بعضهم الى البيت بسيارة تاكسي..

قرر أن لا يشرب في المحلات العامة أبداً. لكن شربه في البيت لم يعد مأمون العواقب. ما أن يتعكر مزاجه، حتى يرفع صوته بالهتاف:

(يسقط سيدنا الوصي) أو (يسقط سيدنا الملك) فان نصحته امه، او عانده أحد، فتح الباب وهتف في الشارع. وبسبب من تكرار هذه المنغصات، التي يندم عليها في الصباح، قرر الامتناع عن الشرب الا في المناسبات.

ألفوا مزاجه المتقلب اثناء الشرب. وصف الملا لياليه: (مثل آذار) ليلة يضحكنا، حد التعب. وليلة يزعجنا، حد توقع مداهمة الشرطة في أية لحظة.

عرفوا بالتجربة أن لياليه المزعجة تبدا من معاكسة صغيرة.. أو نصيحة من امه بعدم التجديف والتعريض بطقوس الدين.

صارت تضمر العتاب، حتى يصحو من سكره لكنه ينكر التهمة ويتظاهر أمامها بعدم التعرض للدين.

بيد أن المزحة تحاصره أحيانا، فيترصدها مساء، ساعة تتوجه الى القبلة، وتستهل صلاتها بأدعية، غدت معروفة له، سمعها مذ كان طفلا ولازالت تكررها دون زيادة أو نقصان:

- امسينا بمساك ونطلب رجاك.

خطّار وسيال عندك يا اللّه.

مسية العافية عليكم يهلنا.

دخيل راعي المسية وفاطمة الزچيه.

فيرفع صوته بكلمات لا تفهمها الام. وحين تسأله:

- شتگول يمّه؟

- دعيات بالانگليزي..

- ليش ما تدعي مثلنا بالعربي؟

- قررت اتعلم انگليزي. ومن شروط تعليم الانكليزية (البركتس).

تعرفين يمّه شنهو (بركتس)؟ معناها (اتچّبش) على حچي الانگريز!

تعترف الام أنها لا تعرف معاني تلك الكلمات، ولكنها تصارحه بأن هذه الالفاظ غير مريحة، اعتمادا على حس لا يخطيء.

ما اكثر مناسباته لشرب العرق؟

حتّم على كامل، ذات مرة، ان يذهب بنفسه لشراء نصف بطل العرق:

المناسبة تهمك بالدرجة الاولى.. انت المضيّف ونحن الضيوف.. انها مناسبة اطلاق اول قمر صناعي سوفيتي..

وأخذ نصف دينار من جيب عمه، ليلة اعلان الوحدة بين مصر وسوريا: هذه مناسبة تهمك.. انت قومي اصيل (على شوية شيوعي).

وقال لأمه في مناسبة دينية: عليك أن تدفعي ثمن العرق.. فأنكرت عليه فعله:

- بمثل هالليلة تشرب عرگك يا منعول!

فأجابها بجد متصنع:

- لانها ليلة رهيبة.. محزنة، ما اگدر اتحمل الهموم، والاحزان بدون ما أسكر!

ولما عاودت تعنيفه. ركض ناحية الباب، وهدد بالهتاف (يسقط سيدنا الملك) فهرولت الام الى المطبخ وجلبت ربع دينار وهي تقول:

- هاك يبعد امّك وعمرها! هاك بس لاتصيح.

وجمع ثمن الشراب و (المزه) بالتساوي، عشية اعلان ميثاق جبهة الاتحاد الوطني:

- عمي ممثل الفلاحين، وكامل ممثل الطبقة العاملة، وآني ممثل البرجوازية الصغيرة (مثل ما يگول الاخ) وأمّي ممثلة المتدينين الوطنيين (أهل اللّه) وام سعد ممثلة الكادحات.. وأيام السنة كلها مناسبات لمن يترصدها على طريقة فاضل:

مناسبة اكتوبر ينبغي أن يشرب المرء فيها ضعفين. أليس كذلك يا أبو سعد؟ انها مولد عالم جديد. أما ثورة العشرين، فباكورة جهاد الشعب

العراقي.. وعيد العمال العالمي.. ويوم الانتصار على الفاشية.. عيد المراة العالمي.. أما الليلة فما هي مناسبتك يا أستاذ؟

أجاب فاضل مع ابتسامة رقيقة:

قلت مناسبة ولم أحدد شكلها ولا مضمونها. واليوم علمت أن (الاخ) كميل شمعون قرر استدعاء القوات الامريكية لتحتل لبنان وتقمع انتفاضة الشعب اللبناني.. فوجدتها مناسبة تستحق الشرب!!

- ولعلها تستحق قصيدة؟

زم فاضل شفتيه، وتلفّت في اركان الغرفة، كمن يخشى الجواسيس، وقال بصوت خفيض:

- تركت الشعر.. الى الابد..

- هذا أجمل خبر سمعته!! ما كان يعيبك الا نظم الشعر!!

تساءل كامل بحذر:

- ما هي دوافع هذا القرار المفاجئ؟

- فكرت كثيراً.. وانتهيت الى نتيجة مفادها ان العراقيين كلهم شعراء! ولن يصبح بينهم من يستحق اسم الشاعر الا الموهوب. اما أنا فلست سوى ناظم.. وحسب! ومع كل الاحتمالات الطيبة.. قد أصبح شاعراً مثل الغالبية من شعراء العراق بعد عشر سنوات.. واذا حالفني النجاح، حتى النهاية، قد اصبح في الصف الاول بعد عشرين عاما.. واشك في أن اكون الاول حتى بعد خمسين عاما!!

- وماذا يعني هذا؟

- يعني ضياع حفنة سنين بانتظار وهم. اريد عملاً يجعلني في الطليعة.

- هل أكملت ربع العرق؟

- تجاوزته قبل مجيئك!

- وماذا تنوي الآن؟

- سأتحول الى قصّاص!

تذكر ملا نعمة قصته القصيرة، التي اشار اليها ذات مرة، فسأله:

- هل بوسعي أن اقرأ القصة (اياها)..

قال فاضل وهو يسلّم الدفتر لعمه:

- اشك ان ترضى عنها.. ولكن من الضروري أن تقرأها أنت بالذات..

شرع الملا يقرأ:

حامل أختام الملكة!

جعلت المشط بين ثنايا الاوراق. مزقت اثنى عشر، هذا يكفي. وحتى الموسيقى تحول دون التركيز. انه ياباني عجيب التركيز بيديه الاثنتين بلغتين مختلفتين، مترجما عن اللغة الام، التركيز قضية أساسية. ما هي القضية؟ معني بالاحكام التي يصدرها الآخرون. استعمال لطيف يصلح لمائدة الشراب: عن أي قضية تتحدث ياولد؟ قضية كافكا؟ القضية العربية؟ قضية البعثة؟ قد تكون. ما أسرع عودته يحمل شهادة الدكتوراه. في امريكا تستطيع شراءها.. وفي باريس الامر متوقف على (نشاطك) في الحي اللاتيني.. الفخورون بشهاداتهم بلا منازع خريجو الجامعات البريطانية.

- من فضلك.

- لم نتعارف بعد

- اعرفك تماماً ولهذا تعمدت ان نتحاور.

- الموضوعية شرط أساس..

- لو كنت مكانك رفضت هذا المنصب.

- وافقت مبدأ الامر أن تكون الموضوعية..

- اسمع. انه شيء مخجل..

- ما هو العيب في هذا.

كانت تداعب شعر رأسه. ترامقني باشتهاء. لحظ ذلك أوشك ان يبتسم لها.

- اخجل أن يشار الي؟ هذا حامل اختام الملكة، لو كنت مكانك رفضت.

- ولكنني عضو في مجلس الوزراء البريطاني.

- الاسم يخجلني..

- افرض ان الاسم (حامل أختام الملك)؟

- يكون الامر مختلفاً.

- والموضوعية؟

ثم التفت الى الملكة، كانت منحنية أكثر مما ينبغي. ترامقني بنظرات شهوانية.

سألها:

- اليس كذلك؟

قالت: تعجبني سمرة وجهه..

- انهم كذلك.

أزعجني برودة. أهملته الملكة على نحو مخجل. قربت نفسها مني. تشممت رائحة بخور (جاولي). وددت لو يصفعها- البارد -.

سأل:

- قل لي ألا تحمل اختاماً؟

- ابدا.

- ولا حتى أختام الشيخ ابن مهلهل؟

- (اتخسا!)

- أليس هذا واحدا من أختامه؟..

- (اتخسا).

- وهذا خاتم آخر.

- (اتخسا).

واصل ضحكته الباردة.

- ما الذي يضحكك؟

- اعتزازك بحمل اختام الشيخ ابن مهلهل.

- الم اقل اتخسى؟!

- الم اقل انها اختام ابن مهلهل..

مد يده على ظهر الملكة، ترك أصابعه تنساب حتى ردفها. برود يثير الاعصاب. سأحطم هذه الاعصاب الباردة. قلت مناكدا:

يا حامل أختام الملكة!

ضحك. طبطب بكفه على ردف الملكة. أخرج سيجارا أشعله. نفث الدخان بوجهي. استأنف ضحكته وقال ببرود:

- يا حامل أختام ابن مهلهل!

فقدت بقايا صبري. جمعت قبضة كفي. لوحّت بها أمامه، لأحطّم وجهك

البارد يا بارد.

انقلب مصباح المطالعة. سقط كتاب كافكا (القضية) على الارض. لم ينته الراديو بعد من تلاوة اسماء أعضاء مجلس الوزراء البريطاني.. استدرك المذيع يقول: بيد أن حامل اختام الملكة يشغل منصب وزير التنمية وكالة..

# الفصل التاسع

- فاضل..

- لبيك يا اماه!

- احچ وياي عربي..

- امرچ..

- واعدتني نروح لاخوالك بالعطلة.. وگضى من العطلة شهر.. واشوفك امدغلس!

- وكيف واين ومتى حصل مثل هذا الوعد المزعوم؟

- گتلك احچ وياي عربي!

- امرچ.. يبعد ابنچ وعمره! غالي وطلب رخيص. باچر طگة ابريج احسبي السيارة بالباب، من هاي اليگول عليها الشاعر (ام الغماره) ارد اشرد لبغداد بأم الغماره.. واشبلشچ ياروح بأهل العماره.. ولازم اجيبها احسن من سيارة ابن مهلهل.. ولازم لو اگبلنا على بيت خلف اتدگ هورن مربع طط طط طيط طيط!

قال ملا نعمة لفاضل مداعبا:

- هسه يگولون اهل البترا جاي يستعطي- لان سوّا جيته، هوه وامه، بأيام الجسمه..

- اشگد تتصور يطونا؟

- تحصل لك تغار!.

- گلي اشچم بطل عركك اتسوي فلوس التغار؟

- تقريبا اربعين!

- واللّه تسوا.. واحد يبيع ماي وجهه!!

شغلت ام فاضل بأعداد هداياها، التي ملأت حقيبتين، ولم ترهق ولديها بشراء شيء منها. فقد جمعتها بصبر وطول اناة، على مدى سنوات: ملابسها القديمة وملابس كميلة قبل الزواج، وما استغنى عنه فاضل وكامل.

اصلحت القديم، وابتاعت الجديد الذي وجدت ضرورة لشرائه. لم تنس واحدا من اولاد اخوتها ولا بناتهم ولاخوتها نصيب مما جمعت وابتاعت.

سألها فاضل:

- لا تنسين شي. گولي اخاف محتازه غرض، حتى اشتريه..

- بعد بس چكليت الجهّال. وچاي وشكر لاخوالك..

* * *

هرع آل صگر، رجال ونساء، وقبلهم الاطفال، مرحبين مستبشرين بمقدم فاضل وامه.

بدت ام فاضل في عباءتها الكتان وفوطتها (الجز) وحذائها اللماع (مثل الشيخية وأحسن..)- هكذا وصفتها احدى نساء العلوه.

اسعف فاضل بالماء.. غسل وجهه ورأسه، ثم استأذن الحاضرين فخلع جوربه وغسل رجليه..

ازدحمت ربعة سويلم الصگر باهل العلوة، فأمر ولده (فرحان) بكنس كوسر الربعة ورشه بالماء..

تساءل فاضل، وهو يحرك (المهفة) قرب وجهه، على نحو عصبي:

- كليوم الحر عدكم هالشكل؟

اجابه خاله كزار:

– اليوم احسن من كل الايام.. اليوم نعمه من الحسين.

اراد فاضل ان يقول دعابة ولكن سرعان ما تذكر وصايا عمه: صحيح ان الفلاحين كلهم الآن ضد الاقطاعيين، ولكن حذار من شتم بيت مهلهل في الديوان. فلهم عيون وجواسيس في كل قرية... وثمن ذلك (لو فرطت وشتمت) تمضي ايام الصيف في (نگرة السلمان) ووصيتي الثانية، ولها اهمية خاصة، حذار من التعرض لطقوس الدين.. حتى بين التقدميين من الفلاحين.

*  *  *

حين غربت الشمس، اقترح سويلم على فاضل ان يخلع نظارته الطبية فتساءل فاضل:

– ليش خالي؟

– چا غير الشمس غابت.

– شنو علاقة الشمس بنظارتي؟

– چا غير لابسهن عن الشمس..

– لا خالي. هذني للقرايه والكتابه.

– معنى، كون واحد يلبسهن يقرا ويكتب؟

– طبعا.

– چا مَا تطيني اياهن؟

– وآنه بيش اقرا واكتب؟

– اشتر غيرهن.

– غاليات.

- بيش؟

- اهوايه فلوس!

- يا خالي، والعباس ابو فاضل، ابيع الهوايش واشتريهن..

آنه هوايه مندوم على القرايه والكتابه.

- الهوايش اشكثر؟

- الكبار اربعه.

- اربعه ما يكفن، لكن تگدر تشتري بيهن نظاره بس تكتب بيها!

- لا يا خالي. اريد اقرا واكتب.

- ينراد لك ثمن هوايش!

- يا خالي چا اشلون بيّه؟

اوشكت الصفقة ان تتم، بين الخال وابن اخته، لولا ان تسرع فرحان وافسدها بضحكته.

* * *

ذبح سويلم الصگر عجلا سمينا، ودعا اهل القرية كلهم على العشاء..

قال فاضل لخاله، وهو يتناول حصته من اللحم:

- اتگولون على الحضر: اهل الدجاج. اشو ما ذبحت لي دجاجه؟

- بيك خير واشبع دجاج، من عين باچر، لكن الليلة، معلومك، هاي الذبيحة لوجه اللّه، من شفناك انته وامك.

- اذا الذبيحة لوجه اللّه، معناها وجهي ظل خالي؟!!

ضحك سويلم وقال لفلاح يليه على الصحن:

- اشلون بصرك؟ هذا دارس كل الفنون وآنه عليك يا اللّه. ما اكدر على

لسانه..

رد الفلاح بأقتضاب، مؤثرا الاكل على الكلام:

- عيسى بدينه وموسى بدينه!

*  *  *

اجتمع شمل العائلة، بعد تفرق المدعوين، نساء ورجالا، بعيدا عن البيت، في الجهة الغربية، وقد تلطف الجو بنسمات باردة، محملة برطوبة شوك البترا و (عاگولها).

تساءل كزار بتحريض من شقيقته، ام فاضل:

- خالي ليش ما تتجوز؟

- يا خالي انته سامع كلشي قسمه ونصيب، بعده نصيبي ما جاي!!

قال سويلم:

- من صدگك ننشدك، موش كشمره.

اجاب فاضل بجد:

- الزواج يا خالي موسهل. ينراد له بيت. والبيت موهين..

ثم تغلب جانبه المرح فأضاف:

- .. ما سامع، بيت اللّه. فلان راح لبيت اللّه.. ويگولون للحجي: وحگك البيت الحجيته.؟

تنهدت ام فاضل وقالت:

- گلبها على الكشمره.. ردينا للسوالف اليخوفن.

ثم تذكرت وصية ملا نعمة، وسألته:

- نسيت وصية عمك؟!

اهمل ملاحظة امه وسؤالها. وراح يعدد متطلبات البيت، مع بعض المبالغة، فبدا لسامعيه وكأن الزواج مشكلة عويصة غير قابلة للحل.

قال سويلم متعجبا:

- سويتها سير وسريده!! حسبالنا مثل بيوتنا وجوازنا: اربع بواري وشدّة گصب، وعجل بليلة الزفّه!!

قالت الام لتحرض عليه اخواله:

- هاي كلها اعذار.. مايريد يتجوز.. مايريدني اشوف اولاده.. وازيح ضيم گلبي!

اعاد رأيا معروفا لامه:

- أنه اگول يتزوج كامل.. وبعدين افكر.

سأل كزار على ذچر كامل: طابعته اليشتغل بيها للحكومة؟

- لا. اهليه..

- خوش يا نعمتك ياربي..

- عجب! اشو بيها يا نعمتك ياربي..؟

- يا خالي، كونها للحكومة نخاف يطردونه.. من حيث هوه هم مثلك، موش جاعد راحه، يحچي على الحكومه!

وتساءل سويلم:

- گلي اشيطبع كامل بطابعته؟

- يطبع حچي!!

- معنى.. هوه ايسوي الحچي؟

- لا. ولاك لوا!! هوه مثل عمتي ام فرحان ايجيبولها الغزل مصبوغ

وتحوكه سجاجيد!!

ابتهجت عمته لهذه الالتفاتة وقالت:

- فدوه اتروح لك عمتك.

*  *  *

هذا وحده يكفي مبررا لاحتمال مشاق التنظيم وتبدو سخريتي مما يقوله الملعون فرحان كمرثية في ليلة عرس. هي نفس الافكار التي تنساب على لسان كامل- والى حد ما على لسان عمي ملا نعمة تساءل ثانية وهو يهصر الوسادة، رافعا ساقيه الى اعلى:

- وكيف يحل هذا التناقض؟

كرر فرحان اجابته، مضيفا اليها: وليس بالضرورة ان يكون لصالح الشعب. فقد تستغل هذه النقمة.. وتتخذ وجهة غير صحيحة.

لم اصدق عمي- مع كل الاحترام الذي اكنه له- بأن الوعي في الريف قد بلغ هذا المستوى. ولكن هذا التفاؤل بالثورة، الذي يملأ جوانح فرحان، هو ما احتاج اليه.

نده فاضل على ابن خاله:

- فرحان.. فرحان.. اخاف نمت؟

- لا. ولو تعبان، لكن متونس على سوالفك!

- ولك ابو الويو منين لك هالمعلومات؟ منين تعلمت هالسوالف و (المفهوميات)؟!

ضحك فرحان مزهوا، لكنه غلف اجابته بالتواضع: ليس ثمة معلومات ولا علوم.. ان هي الا امور نعايشها صباح مساء.. فأن تيسر لنا

توصيلها لامثالك بدت وكأنها معلومات لا يعرفها الا من اوتي شيئا من العلم والتعليم!!

لست بحاجة الى معلوماته وتعليماته.. فلطالما سمعتها من كامل- على هذه الصورة او تلك- ان الذي ينقصني تفاؤله بالثورة وحتميتها! رغم سذاجة التعبير.. وآثار التلقين في اقواله.

- ولكن كيف تصلكم هذه الاخبار والنشاطات التي تبدو خيالية في ريف متخلف وبين اناس مثل ابيك واعمامك؟

- هذا ابي.. وقد صرت على بينة من كل افكاره ووجهات نظره. هو لاغير، يدفع لي تبرعات شهرية.. يعرف انها تذهب للحزب الشيوعي العراقي..

فما وجه الغرابة اذن؟

لقد كنت على خطأ بين في نقاشي مع كامل..

سأله مرة اخرى.

- فرحان نمت؟ فرحان فرحان..

اجابه بشخير متواصل.. لم يسبب له ازعاجا فيما بعد.

* * *

انهى فاضل فطوره على عجل، واشار الى فرحان بكفه:

- الى بيت خلف سرا!

حدثه فرحان، وهما في الطريق، عن تغير خلف المفاجئ، وكيف صارت تطربه الشتائم الموجهة الى بيت مهلهل، وكل الشيوخ. واعتبرها فرحان نتيجة لتصاعد نقمة الفلاحين ضد الاقطاعيين:

وذات مرة تمنى خلف، لو عاد اليه نشاط الشباب لا قضّ مضاجع (بيت مهلهل) او على حد تعبيره: (چنت اصير الهم مثل اسهيل بالماي للاباعر!) ومرة قال، وهي مجرد امنية، لو عاد حسين الى الدنيا ثانية لتبعته في كل ما يقوله ضد (بيت مهلهل) وجعلنا نهارهم اسود مثل (ليلة الحرامية).

تصور لقد صار يسألني كلما ذهبت لعيادته (ربع فرهود- الشوعية- اشلونهم هليام؟)

ثم قال فرحان وهو يتفحص الهدايا:

- اشكبر فرحته لو اطيته هاي الصوغه؟ اكيد يبچي.. ويگول: ياهلا بريحة حسين!

ضحك فاضل وقال:

- گبل چان ايگلي الفهم الك ولاهلك.. هسه يمكن يگول:

الكرم الك ولاهلك!

اقترح عليه فرحان ان يحمل الهدية بيده، حين اقتربا الى ربعة خلف، ويقدمها بنفسه، فذلك ادعى لاعتزازه بالهدية. ثم روى لفاضل كيف ثار خلف على ولده، حمزة، وشتمه حين تقبل اكرامية الشيخ، لمناسبة عرس مطشر بن حمزة، مرسلة مع داود خادم الشيوخ.

اتخذ فاضل من الحكاية اساسا لدعابة عاجلة.. وتخيل (خلف) ثائرا عليه وعلى فرحان وتقمص شخصيته وراح يصيح بصوت مرتفع:

- گوموا.. گشاتله! اطلعوا من ربعتي. حضرته يستنكف ايشيل صوغته بيده.. جايب له واحد ايشيلها وياه.. عود صار افندي.. مية افندي بگشر بصل!!

*  *  *

كما قدر فرحان، وتخيل لحظة اللقاء، بكى خلف بحرقة وردد:

- ياهلا بريحة حسين.. اشم ريحة حسين.

ثم رجا فاضلا ان يخلع نظارته:

- ذب جزازاتك. خلني اشوف وجهك.. چني اشوف وجه حسين بأيام شبابه!

حل خيط (اللفة) فاضل وقال:

- جدي، ابو حمزة، جبت لك صوغه..

قال خلف دون ان يحول عينيه عن وجه فاضل!

- شوفتك صوغه يا ابن حسين..

اخرج الناموسية (جديدة وشفافة)

- هاي كلّه، تحميك من البگ والحرمس بالليل! ثم اخرج قطعة قماش طبي ونشرها بين يدي خلف:

- وهاي تغطي بيها وجهك بالنهار عن الذبان..

ونفض (دشداشة ململ) ووضعها بين يدي خلف:

- وهاي دشداشة خفيفة تناسب حر تموز..

واخيرا امسك قطعة قماش ابيض، بعرض وطول ذراع وقال:

- هاي چفيّه اتحس بيها اديك.

ضحك خلف مبتهجا وقال:

- صلوات.. صلوات. ابيض بأبيض.. كلّه ابيض!

ثم روى حكاية:

منذ عشرات السنين.. لست ادري بالضبط، كم كان عمري يومذاك.. وما عدد السنين التي يفصلنا عن الحادث. لكنني كنت اصغر من فرحان.. ذهبت مع عمي الى الكوت. بعنا ثورين. قال عمي: اعوضك اليوم عن التعب- والركض وراء الثيران بأكلة لم تحلم بها طول عمرك. اشترى تمرا بـ (قران) وملأ وعاء فخاريا بالدبس، اظنه دفع عنه نصف قران.

حملنا غداءنا وجلسنا على شاطئ دجلة، بمواجهة السوق.. ورحنا نغمس التمر بالدبس..

اجتازنا رجل يعتمر (فيسه) (مما كان شائعا ايام العصملي)..

هز يده استغرابا وقال:

(واي واي!! حلو بحلو.. الف سنة العرب ما يطلع بروسكم خير! يغمسون حلو بحلو..)

اضطرب عمي وركبه الخوف.. ولما ابتعد الرجل ذو الفيسة، رمى وعاء الدبس وبقايا التمر بالنهر وقال بأرتباك:

(شويب ميتك.. هذا ابو فيسه اظن راح يخبر علينا الجندرمه.. وياخذونا للحبس.. ويسوون حديد واحدنا وزنه..، ما سمعت شيگول؟ يغمسون حلو بحلو! معناها مارضى علينا..

ولك هاي حكومة، ماينعرف اليرضيها من اليزعلها! واشمدريك ما ممنوع تغميس التمر بالدبس؟!

هربنا بجلودنا.. ولازلت اذكر كلماته، واتخيل صوته المضطرب:

(شويب ميتك حلو بحلو!)

فتح خلف علبة البسكويت، وتذوق قطعة منها، فعاود الضحك ثانية

وقال:

- واي واي.. وهذا هم حلو! يا نعمتك ياربي.. ابيض بابيض والاچل حلو!

* * *

ارتفع صوت خلف، حتى طغى على صوت الراديو، تناهى الى العائلة المجتمعة لشرب شاي الفطور:

- جمهوريه.. جمهوريه. ولكم جمهوريه. حيهم.. حيهم..

هب حمزة مذعورا وتكنّى:

- انا ابو مطشر.. يا اللّه دخيلك. ياساتر ياربي. زعم انشخط الشايب!

سمعوا صوت الراديو بوضوح:

- اذاعة الجمهورية العراقية..

رفع خلف ذراعه ولوح لحمزة:

ولك جمهورية! هاي اليريدها فرهود.. يا فرحتك يا فرهود.. يا فرحتك يا فرهود..

وصل حمود بن شنين مهرولا، فكان اول من لاحظ وقوف خلف على رجليه.

لوح له خلف بانفعال:

- ولك يحمود هاي الجمهورية اللي تمناها فرهود! يا فرحتك يا فرهود!

عبث داود بمؤشر الراديو: نفس المكان الذي تبث منه اذاعة بغداد كل يوم. ياللهول!

شجعته زوجته على الذهاب الى ربعة خلف، ليتأكد من جهاز الراديو

الآخر. اندس وسط الحلقه. قال باضطراب:

- هاي يمكن اداعة سريّه!

اتكأ خلف على حائط الربعة. لوح بعصاه في وجه داود وصرخ:

- گوم. اداعة سرية؟!! سرسرية! هيدا روح لشيوخك.. اليوم يتفلش غصرهم على روسهم!

قال حمزة ينصح والده:

- بويه على كيفك.. هسه احنا عرفنا القضيه شنهي ما شنهي. لا اتصير مثل البدّا مايه على السراب!

زجره خلف بنفس اللهجة التي خاطب بها داود:

- كوم. امخنّث! خايف منهم؟ نعلة والديهم ما ايگص الراس غير الركّبه.

* * *

اكتض فناء ربعة سويلم الصگر بالرجال والنساء والاطفال.. كان فاضل يصيح:

مظاهرات.. مظاهرات..

ارتقى فرحان بن سويلم (السوباط) وهتف عاليا:

- حيهم.. حيهم.. النشامه سلاحكم سلاحكم.

صاح فلاح آخر:

- البيرغ.. البيرغ.

خلع احدهم يشماغه، ليشد على رمح (فاله) فزجره فرحان:

- لا. لا. هذا ابگع شوفولنا وصلة حمرا..

ردد فاضل من وسط الحشد:

- حمرا.. حمرا.. وصله حمرا..

*  *  *

تحلق الفلاحون حول فاضل. اشار عليه فرحان بضرورة قيادة الجمع والتوجه الى قصر الشيوخ.

لعلع صوت الرصاص في الفضاء.

تحرك الجمع، نحو بيت خلف، الذي يقع على الطريق المؤدي الى قرية الشيوخ وقصرهم. تذكر فاضل خلفاً، في تلك اللحظة فصاح:

- هوسه.. هوسه على حساب خلف!

تزايد اطلاق النار. دهش الفلاحون وهم يرون خلفا يستقبلهم بخطى ثابتة. تضاعف حماس الفلاحين.. اهتزت الارض تحت اقدامهم. لوح خلف بعصاه.. وتساقطت دموعه: ما اعذب هذا الهدير! ما اروع اقدام الرجال وهي تركل الارض بحماس. هذا ما كنت اريده.. وهذا هو سبب بقائي وشقائي..

ياله من يوم ويالها من فرحة لا يعوزها الا وجودك يا فرهود.

اصر خلف على مرافقة الجمع. لم يكن ذلك سهلا عليه. رجاه فاضل وفرحان، من اجل الثورة، من اجل ان لا يتأخر وصولهم، فليؤجل ذهابه. قال خلف بحماس:

- ردت لي هوسه ابّاب العصر.. وعسى الموت باچر!

*  *  *

همس داود لزوجته:

- اليوم الفلاليح يذبحون ضاري..

خبطت زينة على صدرها وشهقت:

- يمّه.. يمّه يذبحونه؟!

عض داود شفته السفلى وقال برعب:

- اس. يمعوده، لا يسمعنا احد. اليوم كل الوادم مشخوطة مثل خلف.

* * *

وقف صالح ابو البينه، راعي غنم الشيوخ، على مترب جدول البترا، يراقب بذهول ما يجري في قرى العلوة ومويلحة والصالحية. خمن كل الاسباب المحتملة، فأستقر عند واحد، بلغ في ذهنه مرتبة اليقين. ساوره احساس بالمشاركة، فقال بأشفاق مباغت (يا حيف واللّه يا ابن مهلهل تموت ببلاد الاجانب) ثم ساءل نفسه متعجبا: ولكن كيف اجتاز بيتي رسول النعي، وبلغ اهل العلوة ومويلحة ولم نفطن اليه؟

قدر ان ولده اطال المكوث في قرية مويلحه، اكثر مما ينبغي: هذا مع التأكيد على رجوعه عاجلا، قلت لا تترجل عن ظهر فرسك.. خذ الخبر من اقرب كوخ وعد الي مسرعا، لا يعرف معنى الانتظار والقلق، ليس عبثا قولهم (العاجل ودّه ولا توصيه) اما الجاهل فلا تنفعه الف وصية.. لابد انه في بيت عبيد، مثل كلب جائع، يسترق النظر الى خطيبته ويتلمظ.. لا يهمه ان كنت اتقلى انتظارا..

رأى الغبار، اولا، تثيره حوافر الفرس، ثم سمع وقعها شديدا، حيث كانت الارض صلبة. زفر حانقا، وعض شفته السفلى: يريد التعويض عن الوقت الذي صرفه بجانب خطيبته.. آخ.. من متاعب الاولاد والبنات...

ليتني..

رأى جنيدي منحنيا فوق ظهر فرسه، مطلقا لها العنان. بدا وكأنه يتنشق رائحة المتاعب، ويبصر الشؤم كالغبار المتطاير من حوافرها: لم اقع في الوهم.. ولم تخدعني ظنوني من قبل.. ليس سوى خبر نعي الشيخ فالح وسوف يلحون على اخذ كل (الطليان الهرافي).. من يدري وهذا الولد ضاري جديد على (الشيخه) ويذبح بلا حساب ليثبت انه فاق الاولين والآخرين بسخائه ولعله مأخوذ بشهرة حاتم طي (افلست يا صالح يا ابن الغبرا من صوف العگ)..

اقلع عن الحدس المضنى، ليواجه الخبر اليقين، فهتف متسائلا:

- ها ولك.. شنهي ما شنهي؟

اجابه جنيدي لاهثا:

- مدري شنهي ما شنهي!

- ولك احچ.. وگعت گلبي..!

- ثورة مدري انغلاب مدري ثورة مدري شنهي!

- ولك احچ عدل. سويتها رطونه!

- راح الملك..

- راح الملك؟

- وراحت الحكومة..

- راحت الحكومة.؟

- ايه وراحوا الـ... مدري شنهي ما شنهي!

- ولك انته انشخطت؟! سولفها مثل ماهيه..

- اكلك ثورة..
- ايه وبعد؟
- چا بعد شتريد.. ازود من هالخبر؟
- لاحول.. لاحول.. چا الوادم اشعدها انخبصت؟
- غير ثورة؟
- اهل العلوه ليش علگو بيرغ؟
- چا غير گتلك ثورة!
- حرام.. ان چان افتهمت شي!
- گلنا لك من زمان خلنا نشتري راديون مثل الوادم!
- ولك انته موش صاحي! يمكن انشخطت انوب جايني بسالفة الراديون؟! آنه موش گلت مادام خشمي ايشم الهوا ما ايطب بيتي راديون؟

سمع أزيز الرصاص يخترق الفضاء. لمح (البيرغ) الاحمر يستدير وسط جمع اهل العلوه. تحرك الجمع، باتجاه بيته: هذا غير مفهوم ابدا.. راح الملك.. وما شأن اهل العلوه؟ هل يشيعونه.. ما معنى هذا الرصاص والهوسة والبيرغ والغبار يملأ الافق؟ واهل مويلحة يتراكضون ليدركوا اهل العلوة.. والجو تغشاه الكآبة!

لم تخدعني ظنوني من قبل.

وتساءل بذهول:

- هذا الافندي اليركض جدام الجيمه شنهو؟
- هذا فاضل المعلم.

- ابن ناصر الحسين؟

- ايه.

- شوهاي مدري شنهي ما شنهي؟!

بعث المختار ثانية؟ واهل الكوفة انفسهم يتصايحون: يالثارات الحسين! ما الذي يريده ابن ناصر؟ هل يأخذ بثارات ابيه وعمه؟

لوح فاضل بذراعه، كالسيف المصلت، وقال مداعبا (ابو البينه):

- خاف يجيك واحد من الشيوخ لا تنطيه ولا طلي!

فأضاف حمود بن شنين:

- ولا عطب صوف!

وتناهى صوت عودة الكبر من وسط (الجيمة):

- ولا بعروره!!

شد لحيته بعصبية: هل انا في حلم.. أيجثم كابوس فوق صدري؟ ماذا ارى وماذا سمعت؟

تضخمت (الجيمة)، عندما التحق بها اهل الصالحية.. تكاثر اطلاق الرصاص في قرية الشيوخ: هل اخذ المختار بثارات الحسين!؟ طال انتظاره، حتى اشتد الحر. اجتاحت البترا موجة من ريح السموم، تشوي الوجوه..

شمل الافق قتام كثيف.. صعبت عليه الرؤيا.. رجع الفلاحون بلا هوسة، يشكلون صفا طويلا يتقدمه فاضل. ولما بلغوا غنم الشيوخ، صاح عودة الكبر معابثا:

- احسبوا الغنم.. هاي صارت غنم الشعب.

حاور صالح نفسه، وقد ارتعشت ساقاه:

الشعب؟ هو نفسه الذي فرهد خيام الحسين وعاد ثانية يصرخ يالثارات الحسين..

تطوع عدد كبير من الفلاحين، وشقوا طريقهم وسط الغنم، ثم راحوا يومئون بالاكف عدًا. تبادلوا بضع كلمات، لم يسمعها صالح ابو البينه، بعدها ارتفع صوت فرحان بن سويلم:

– مضبوط.. مضبوط الف وميتين وخمسين..

قال صالح بهلع:

– عمي، دخيلكم ودخيل اللّه، حسابكم موش مضبوط، وهاي موش كلها غنم الشيوخ.. ثانية وبعد..

قاطعه حمود بن شنين، بسخرية ظاهرة:

– هذا الحچي ايفيدك.. ايصير عليك مثل يوم الغيامة وحساب منكر ونكير!

صاح عودة الكبر، ولا اثر للمزاح في صوته:

– لو راح راس من الغنم، ترى حكومة الجمهورية اتودي جلدك للدباغ!!

لعب الفار في (عب) حمزة: اي نوع سخيف من المزاح، هذا الذي يمارسونه، ما علاقة الجمهورية بالغنم؟ ولكن يا حمزة الشاطر! اتكون تقولات الناس عن الشيوعيين صحيحة؟ يستولون على اموال الناس عنوة ويصبح كل شيء (خلط وشْ!) ويصادرون شياهي (وما شفناك يانون لما اخضرّت العيون)؟!

لا تكن غبيا الى هذا الحد.. فليس حمزة الخلف كالشيخ ابن مهلهل. لا

تنسى انك تتدرع بأسم خلف عدو الشيوخ اللدود.. ولك اخ شيوعي عتيق- يشفع لربيعة ومضر لو اراد..

ولكن يا حمزة السفيه.. خربطت.. واسأت العلاقة به.. ومع ذلك فلا خوف ولا وجل.. لابد ان يتحرك الدم ولن يخذلني يوم الشدة.

اقتفت آثار الفلاحين اخبارهم.. وما صنعوا بقصر الشيوخ.. سمعها مهيدي بن صالح مضخمة ورواها لابيه ممطوطة:

- طبوا للغصر.. نهبوا كل مابيه.. وكسروا بگايا الغراض.. ولولا سيد حسن الكربلائي چان ذبحوا بيت مهلهل نسوان وزلم!!

حاول صالح ان يبلع ريقه.. وجد لسانه كالخشبة اليابسة.. استنجد بالنساء محشرجا:

- ما.. ي.. شوية ماي!!

عاودته حكة قديمة، فوق السرة، راح يهرش جلده بقوة.. لم يجد الراحة الا حين ادخل طرف عباءته تحت الدشداشة، ودعك المكان بالنسيج الصوفي الخشن.

لاحظت ذلك زوجته، فأسرعت الى وسادتها، واستخرجت طينة مجففة، بحجم التفاحة، تفل عليها السيد ابو شرارة، فأحتفظت بها العائلة، منذ زمن بعيد، يفيد منها كل مريض، ولشتى صنوف المرض. برت قليلا من الطين في طاسة الماء، وناولتها اياه قائلة:

- اخذ.. اخذ.. هاي من طينة ابو شرارة، داخلين على جده، ادهن بيها جلدك.

تناول الاناء بكف مرتعشة. ادار وجهه ناحية اخرى، مخافة ان تظهر

عورته، فقد آلى على نفسه ان لا يلبس سروالا داخليا.. اعتبر ذلك بدعة وقال اكثر من مرة: فتحت عيني في قرية تزيد بيوتها على المائة ولم ار احدا يلبس اللباس.. حتى سعدون بن مهلهل- اللّه يرحمه- كان يلبسه ساعة يركب الفرس.. ثم يخلعه لحظة ترجله.

مسح بطنه بالماء. التقط طينة صغيرة وضعها فوق مكان الحكة.. وتمتم بأدعية.. ثم رفع صوته مخاطبا السيد ابو شراره على البعد:

- يا ابو شرارة داخلين على جدك، الك نذر طلي گيضي، كون اتخلصني من هالحكه.. وتكفينا شر هالزوبعه.. اللي ما نعرف اولها من تاليها..

توجهت زوجته ناحية الشرق، ولوحت بذراعها الى مقام سيد سراب، ودعت:

- يا سيد سراب، يا ابو الفوانيس، الك نذر ديج، كون ايطيب ابو مهيدي، ونطلع سلامات من هالحوسه..

تذكر صالح فجأة، انه مدين للسيد سراب بنذر، لا يتذكر ما هو على وجه التحديد: ايكون طليا؟ لا اظن.. لم اقع في ورطة من قبل تستحق نذرا كهذا.. كان الاولى بي ان انذر طليا اليوم الى سيد سراب بدلا من السيد (ابو شراره)، الذي يعيش على مجد غابر لا شاهد عليه الا ضميره- يقول والعهدة عليه- حل الضيوف في ربعتي، وهم في عجلة لمتابعة مسيرهم الطويل. ولم تجد زوجتي نارا لاشعال التنور.. فوقفت بجانبه ونفخت فيه- وحينذاك انطلقت من فمي شرارة اشعلت التنور، ومن هنا كنيت (ابو شرارة) اما فيما عدا هذه الآية فلم نشهد بالعين اية معجزة اخرى! اما

بالنسبة للسيد سراب فالامر مختلف تماما، في كل ليلة جمعة وفي ليالي الاعياد يشتعل فانوس في مقامه، من تلقاء نفسه والى هذا فالسيد ابو شرارة- وانا دخيل جده!- كثير النفاق بين يدي الشيوخ.. يتزلفهم شأن ملا علي وابن اخي داود.

انتفض لهذا الخاطر الخبيث الذي اقتحم ذهنه عنوة، وجعله مطية لوساوس الشيطان. فأستعاذ باللّه، وعاتب نفسه: أفي مثل هذا الشبدة اضع نفسي محل الناقد لاعمال السادة اولاد رسول اللّه؟!

ثم رفع صوته مستدركا:

- دخيلكم كلكم.. زغيركم وچبيركم.. چذابكم وصداگم!

* * *

كان الشيخ ضاري بن فالح يقف في واجهة المضيف، ممسكا الترانسستور بيد، وحبل المضيف باليد الاخرى، وعن يمينه السيد حسن الكربلائي، وعن يساره ملا علي كاتب الشيوخ. ولم يفطن الى مواعظ السيد الكربلائي، الذي راح يحثه على الصبر ورباطة الجأش.. رأى بوضوح كثرة الجمع، وسمع الهوسات. ومن قبلها اطلاق الرصاص.. تبلد فكرة.. وشلت ساقاه.

اقتربت الجيمة. اوشكت ان تعبر الشارع العام، فهمس له ملا علي:

- روح للبيت.. لبيت العيال..

ايد السيد حسن هذا الاقتراح بقوله:

- اتجنب الاحتكاك بالزعاطيط.. وسيقضي اللّه امرا كان مفعولا..

ولما عبرت الجيمة شارع السيارات استوقفها فاضل، والقى كلمة

قصيرة، حذر فيها من الانجرار وراء الاستفزازات واوصى بعدم التعرض لممتلكات الشيوخ.

قال عودة الكبر:

- انريد النا هوسه زينة ابّاب القصر اتلعب ابطونهم!

وقال حمود بن شنين:

- حتى استافي الخيزرانه الكسروها على ظهري.. گولو بيش؟

- بيش؟

- ألطخ باب القصر بزهمول طين!

قال عودة الكبر:

- وآنه استافي خيزرانتي، گولوا بيش؟

- بيش؟

- ابول ابّاب القصر؟

رددت جنبات القصر هوسات الفلاحين واطلاق الرصاص.

هوس فرحان بن سويلم الصگر:

(اتصنت واللّه اتصنت هذا اليوم الراده العامل والفلاح).

بلغ الحماس ذروته، حين اقتربوا من المضيف. هوس حمود بن شنين:

(يتلفت حسباله انزوره!) لم يشاركه الا قلة في هوسته كان لهوسة فرحان مذاقا طيبا في الافواه.

هتف السيد حسن الكربلائي، وهو في باب المضيف:

- يا عشاير السياح هذا بيت شيخكم ابن مهلهل لا احد يعبث بيه..

التفت اليه حمود بن شنين وقد جفف العطش لسانه، ورد عليه بصوت

اجش:

- اسكت مولانا اسكت.. هذا موش شغلك. انته شغلك ضرب الثريد!!

اختلط اهالي القرية بالجمع. زغردت النساء.. اقتحموا سور القصر.. صاحوا يطلبون الماء.. فتح بعضهم حنفيات حديقة القصر.. دار خدم القصر بأواني الماء البارد.. تمدد معظم الفلاحين تحت ظلال اشجار الحديقة.. دخل بعضهم مع الخدم وهم ينقلون الماء.. صوت فاضل على فرحان.. وسلمه خمسة دنانير ليشتري بها التمر للجيمة.. عاد فرحان وجماعته يحملون گواصر التمر.. واعاد المبلغ لفاضل، معلنا ان بقال القرية تبرع بالتمر تعبيرا عن فرحته بالثورة.. شرع بعضهم بفتح الگواصر..

فأقترح عودة الكبر، ان يأكلوا التمر في مطعم القصر الانيق.. دخلوا قبل ان يسمعوا موافقة على الاقتراح.. تزاحم الفلاحون داخل حجرات القصر وممراته.. صاروا يأكلون التمر ويرمون النوى معابثين، الى كل زاوية من زوايا القصر.

امتدت الايدي الى البوفيه.. فخشخشت بعض الصحون والملاعق.. اجهد فاضل نفسه للحيلولة بين الفلاحين وبين العبث بمحتويات القصر.. كان يدور بين الغرف دون جدوى.. اخفى الفلاحون كل ما يمكن اخفاؤه تحت الثياب:

سمعوا حمود ابن شنين يصيح:

- هلو.. هلو..

وجدوه يمسك سماعة التلفون ويصيح:

- هلو.. من فضلك اريد الباشا.. اتكلم وي الباشا!!

عفط احدهم بقوة..

اقترب منه عوده الكبر وقال:

- فدوه اطني التليفون..

- شتسوي بيه؟

- ارد ابول بيه!

سرى لغط بين الفلاحين.. صاح احدهم:

- هذا زناد خلف..

ركض ناحيته حمود بن شنين وصاح:

فدوه اغدي لك اطني اياه.. حتى اوديه اله.. دورت عليه لما عجزت.. بيوم (العنصريه!)

بحث حمود بن شنين عن حمزة فلم يجده.. كان الاخير قد انسل من الجيمه قبل دخول القصر، مخافة ان يلمحه احد خدام الشيوخ.

غادروا القصر عند الظهيرة فرادى، فتشكل صف طويل، يتقدمه فاضل بادي الاعياء.. ولما اجتازوا غنم الشيوخ في ممراح الظهيرة قال عوده الكبر معابثا:

هاي صارت غنم الشعب!

انتهى الجزء الثاني من الرباعية

يليه الجزء الثالث

غنم الشيوخ

# كتبوا عن المؤلف شمران الياسري

* جاء هذا الفلاح المثقف من ريف الجنوب وهو يحمل في قلبه حب الوطن و الناس . غرف من الثقافة ما جعله مرجعاً للفلاحين ، يغرس في نفوسهم مشاعر التحدي للظلم ، حاملاً همومهم على أكتافه.

لصراحته ضاقت به ذرعاً أجهزة السلطة في عهد عبد الكريم قاسم ، فأقفلت الاذاعه ابوابها امام برنامجه الاذاعي ( احچيها بصراحه يبو گاطع).

د . فائق بطي

كاتب واعلامي

* ان الكورد كانوا ينتظرون اذاعة برنامج (ابو گاطع ) كما ينتظره فلاحوا الجنوب والوسط.

فلك الدين كاكه

يي

وزير الثقافه في اقليم كردستان

* لازمت المرحوم شمران الياسري في سبعينيات القرن الماضي . كانت عباراته .. كلماته ومفرداته بمثابة دروس لي ، وكنت كالطالب في مدرسة هذا العملاق ، كان معلمي الذي أضفى علىَّ الكثير من الدقة والصراحة والحسم في المواقف التي لا تقبل التراجع والضعف . لقد كان ابو گاطع

# رباعية ابو كاطع

شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٢٤ بغداد لسنة ١٩٧٢ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٧